

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ١٣٠١٣

المجلة

بجدة السجينة للادب والعلم والفن

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
المنية الخضراء - القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العدد ١٩٦ ، القاهرة في يوم الاثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٥٦ - ٥ أبريل سنة ١٩٣٧ ، السنة الخامسة



عام الاسلام والسلام



هكذا تتعاقب
أمواج السنين على
ساحل الحياة ، فتتفي
الخبث وتطرح الغشاء ،
وتترك الأحداث ،
وتزيد في سجل
التاريخ صفحة بعد
صفحة ؛ وابن آدم
القاني محمول على
غواربها الرُّغن ،

تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وترجع بعضه إلى العباب والهج
ومن يرجع فسوف يعود ؛ ومن عاد فسوف لا يرجع !
هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة ،
فيلفظ القشر ، ويحفظ اللباب ، ويصمى اكدار الوجود بالعدم ،

فهرس العدد

صفحة	
٥٢١	عام المجري احمد حسن الزيات
٥٢٣	في ظار حراء الأستاذ احمد أمين
٥٢٥	نجم احمد الأستاذ توفيق الحكيم
٥٢٧	الاسلام بعد ١٢٥٥ سنة الدكتور عبد الوهاب عزام
٥٢٩	العلاق بين مصر وبيزنطية الأستاذ محمد عبد الله عنان
٥٣٢	ليتي كنت أدري (قصيدة) الدكتور محمد عوض محمد
٥٣٧	صوت الاله
٥٣٩	الذي تريد الأستاذ عباس محمود العقاد
٥٤٥	الجزيرة والتاريخ الاسلامي الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٥٤٧	منى الهجرة الأستاذ علي المنطاوي
٥٤٩	سلاميش الأستاذ محمد فريد أبو حديد
٥٤٣	لسية الأستاذ ابراهيم مصطفى
٥٤٤	من مواقف العروبة الأستاذ محمد سعيد الريان
٥٤٧	بين حراء وعرفت الأستاذ عبد المنعم خلاف
٥٤٩	الخلود الدكتور ابراهيم يوسى مذكور
٥٥٢	تناجى البقرة المنسية الأستاذ قدرى حفظ طوقان
٥٥٥	تصبح نص عري قديم الأستاذ عبد القادر المخرّب
٥٥٨	نهضة العلوم الطبية عند العرب الدكتور زكي علي
٥٦٢	القضاء (قصيدة) الأستاذ أحمد الطرابلسي
٥٦٦	علم التاريخ عند العرب الأستاذ عبد الحميد البادي
٥٧٠	الصوف الفلسفي في الاسلام الدكتور ابو العلا عفيفي
٥٧٥	صديق من صنف الأعداء الأستاذ أمين الخولي
٥٧٧	الجيش والبحرية في مصر الدكتور حسن ابراهيم حسن
٥٨٠	البابى الاول
٥٨٠	تبصرة وذكري الأستاذ محمد احمد النمرأوى
٥٨٢	غزوة بدر (قصيدة) الأستاذ ابراهيم مامون
٥٨٤	الشعر والنثر في الدين الأستاذ غفرى أبو السعود
٥٨٧	المرق والانجليزي
٥٨٧	حاملتان تتاحيان الأستاذ محمود غنيم
٥٩١	نفحة شرقية في أدب غربي الأستاذ عبد الرحمن صدق
٥٩٥	علوم القدماء عند العرب الدكتور يوسف شخت

وَيُعْتَقِ حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارث من ديباجة
العين بأفواف الربيع ؛ وابن آدم في يد القدر المصرفت محراث
ومنجل ؛ بمض يزرع الأمان وال عمران والخير ، وبمضه يقطع السلام
والوئام والحب ، وبين هاتين القوتين المتكاثرتين يسير هذا
الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الآتي فلا يركد ،
ثم لا ينسحق بينهما إلا هذا الغبي الذي سلط نفسه على نفسه !

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا

بد من تألف العقليتين وتحالف القوتين لآقرار النظام في الدنيا والسلام
في العالم . والاسلام - دستور الديمقراطية الصحيحة ، والاشتركية المنظمة ،
والاخوة الشاملة - يبسط يده لكل يد تدفع الانسانية إلى التقدم ،
وترفع المدنية إلى السمو . وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره
وراعهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه في مشرق نوره ، ويخفئوه في مصدر
صوته ، ليسرقوا الضياء في الظلام ، ويسلبوا الذخائر في الغفلة ، قد أخطأوا
فهمه وجهلوا قواه . فإن نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس ؛
وإن صوته من السماء . وسيترفع ما ارتفع الحق ؛ وإن سلطانه من
العدل ، وسيتيق ما يقى الكون . فاذا انشقت الأرض ، وانفطرت السماء ،
وانكسرت الشمس ، عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ،
طاهراً كما انبثق منه !

تقدأصابوا أخيراً فخطبوا وده وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين
الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح
أمام الباطل الخداع وجها لوجه . وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق
ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الاسلام
أصدق وعدا ، وأن العرب أوفى ذمة . ولعل هذه التجربة القريية
ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء في
فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء في المغرب

إن الاسلام روح فهو حياة ، وغنية فهو قوة ، وشرية فهو
دستور ، ومحبة فهو سيلم . فناملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا
رفده ؛ أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفولة ،
إن قطعت قبل بالأمس فلن تقطع بعد اليوم .

محمد الزماحي

لله الحد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعه الظلام ولا عصبه
الخصام ولا فرقة الهدم ؛ إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت
بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، وبلغت رسالة
الحق ، وحملت أمانة العلم . هذا تاريخنا ، تتألق أيامه الفر في ظلام
الماضي ، كما تتألق الكواكب الزهر في حلك الليل . أرشدنا الضال
فاهتدى ، وحسينا الدليل فعز ، وعلينا الجاهل فتعلم ؛ ثم مكنا في أرضنا
الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجال والخير ، فقويت في كل نفس ،
وازدهرت في كل جنس ، وانبعثت في كل دين ، وانتشرت في
كل ألق ؛ وحققنا لهذا الإنسان طريدا العدوان وعبد الطفيلان أحاديث
أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التي يعم بها النعيم ، والمساواة
التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المذارك ؛ لأن رسالتنا
لم يوحها الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة ،
وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصالح ، ليدرا قوة بقوة ،
ويصلح نظاما بنظام ، وينقذ إنسانا بإنسان

فلما أدركنا ضعف المخلوق ونقص البشر ، فندحتنا تكاليف
الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترقه ونستجيم ؛ ثم محونا اليوم
نسخ الكرى عن الجفون ، ونفخض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم
يصصف به سعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ؛ واذا الذين
الشرقي يقلبه المزاج الغربي إلى كلب وغللب : فبقريه موسى رباً
ودبسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ واذا رجل لم تنبته صحراء
العروبة ، ولم تنفحه عطور الشرق ، يطفيه الحديد ويبطره العديد ،
فيقول وهو يحطم الصليب في الحبشة : أنا حامى الاسلام !

في غار حراء

للاستاذ أحمد أمين

في غار حراء - وهو غار

يقرب من ثلاثة أمثار في

مترين في قمة جبل على يسار

السالكة من مكة إلى عرفة -

كان محمد وهو في سن

الأربعين قبيل الرسالة

يتجشع

كان محمد في هذه الأيام

يألف العزلة - لم يكن

شيء أحب إليه من أن يخلو وحده ،

وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضى شهراً مجاوراً في غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر؟ وما الذي كان يطلب؟ وما هذه الحالة

النفسية الجديدة التي استولت عليه؟ وما الذي جعله يهرب من

الناس وقد كان بهم أنيساً؟ يسعد بالوحدة ، ويسعى إلى العزلة ،

ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره؟ وما الذي جعله يختار قمة

جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه في التفكير من غير

أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ما هذه الأفكار التي كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير ،

ولعله كان يرد أن يبقى كذلك شهراً لولا واجب أهله وواجب

عشيرته ؟

ولكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة؟ وإذا سالناها فهل

في استطاعتنا أن نجيب عنها ؟

هل في استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ وهل

في مكنة من لا يحسن الرياضة أن يتخيل ما يفكر فيه الرياضي ؟

وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان ؟

ولكن ماحيلة الإنسان وقد خلق طموحاً إلى أقصى حد

وأبعد غاية ، لم يقنع في باب المعرفة بشيء ، لم يقنع بالأرض

ففكر في السماء ، ولم يقنع بالظاهر ففكر في الحقائق ، بل لم يقنع

بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله ، وهيات هيات !

أكبر الظن أن ، محمداً ، في هذه الفترة ، وعلى الأخص في

غار حراء كان في حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله

« ووجدك ضالاً فهدى »

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم

ولا إيمانهم ولا أخلاقهم ؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة

الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمي

ومظاهره ، فلم يعجبه شيء من ذلك . لقد رآهم يعيشون كما يعيش

السماك يأكل بعضه بعضاً ، أو كما تعيش الذئاب والشيء في

حظيرة واحدة

رحمك الله ! ما هذه الحيرة الشاملة ؟ لا البداوة السذاجة

ونظامها أعجبه ، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبه . لم يعجبه

ما رأى من وثنية ، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية . فأين الحق ؟

لقد اطمأن إلى شيء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال ؛ وحيره

شيء واحد وهو سؤاله أين الهدى

حالة نفسية إذا تملكك نفساً مرهقة وشعوراً دقيقاً ملكك

نفسه وغمرت قلبه ؛ فخلاله أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه

وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدتها تفتح قلبه وتريح

نفسه ، ووجد فيها مفتاحاً لحيرته واتجاهاً لهدايته فبالغ فيها حتى

بلغت الشهر !

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضنونون نفسه فليهرب

منهم ، وإن منظر الطبيعة بجبالها وبهاثها ورونقها ليحيي نفسه

فليطمئن إليه . يتعاقب عليه في عزلة الليل والنهار فيجد في كل

غذاء نفسه : هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه ، وسمائه

ونجومه ، والعالم حوله كله نائم ، وهو يناغي النجم ، ويشاطره الاضطراب والحيرة ، وهذا النهار - في أعلى الجبل أيضا - يشرف منه على العالم من تحته ، فيهزأ بالناس وسخافتهم هزوا مشوبا برحمة ، واستخفافا بمزوجا بعطف

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفقه قلب محمد في غار حراء . لقد عرف الباطل ، ويريد أن يعرف الحق ؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ؛ ولم يحب ما عليه الناس ، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس .

هذا الظلام فإين النور ؟ وهذا العمى فإين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون ، فإين ما يجب أن يكون ؟

لقد طلب الحق - في غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه ، واستعدت روحه ، وكلمت مشاعره ، وتوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهابا لليقين ، وضلاله إرهابا للهدى

لم يطلب الحق من طريق الشعر ؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال ، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ، والشاعر يغنى لنفسه - أولا - ولا باس أن يسمع الناس ، والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه ، وليس هذا من النبوة في قليل ولا كثير . ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما عبد المنطق ، عبد الالفاظ ، عبد الكتب ، عبد النصوص ؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ؛ ولكل إنسان عقله ، ولكل إنسان تفكيره ، ولكل إنسان منطق وقضايا

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله ، وأرفع من ذلك كله : طلبه من طريق القلب ، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا ، فأعلن أنه أمى وغفر بأميته ، لأن القلب فوق اللغة ، وفوق الكتابة والقراءة ، وفوق العلم ، وفوق المنطق ؛ وهو القدر المشترك بين الناس ، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس ، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان

من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب ، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان ، وإنما فضل على ذلك كله

غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه ، وحيث يتصل هو وهى بربها ورب

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ، لا اتجاه الشعراء والعلماء ، وتنبأ للأمر العظيم ، فلبعت في قلبه الشرارة الالهية ، كما يتنبأ السحاب فيلج البرق

لقد أضاعت له هذه الشرارة الالهية كل شيء ، وكانت رسالته من جنس هدايته ؛ فرسالته أن يبعث الحياة في القلب ، ويبعث الضوء إلى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس ، يشترك في الاهتداء به العالم والجاهل ، والذكي والغبي ، والفيلسوف والعامى ، على اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء

ولست العقول مسائرة في الرقى والانحطاط للقلوب ، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل ، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص ، وأسلمت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرا ، ومحمد بشرا رسولا . لقد صعد إليه إنسانا حائرا ، وهبط منه إنسانا نيا ، مهتديا مطمئنا . صعد شاكا ، وهبط مؤمنا . لمع في قلبه النور الإلهي فاذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره

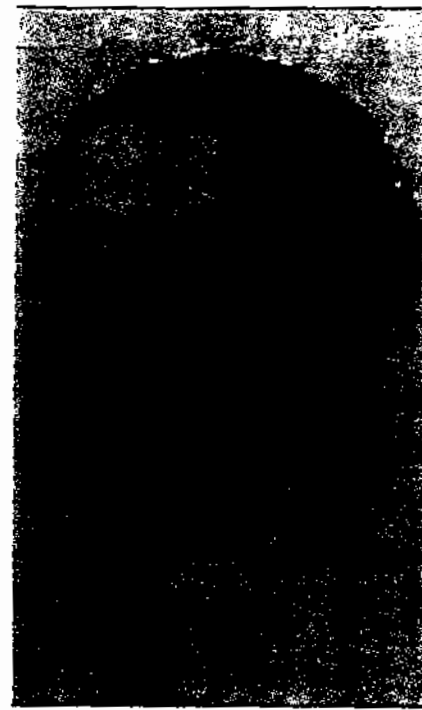
نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يحيوا قلبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره

أى شهر كان هذا الشهر ؟ لو وزن به الزمان لوزنه ، وأى مكان غار حراء ؟ لو فاضل كل مكان لفضله

أحمد أمين

نجم أحمد !

للاستاذ توفيق الحكيم



وقف اليهودي
على أحد أطام يثرب
ناظراً إلى السماء يعلن
إلى بني قومه ميلاد
النبي في صيحة
مدوية : طلع الليلة
نجم أحمد ! عجباً من
العجب ! أحقاً لم ير
ذلك اليهودي نجم
أحمد قبل تلك الليلة ؟
يخيل إلى أن الناس
في ذلك الزمان كانوا
يسIRON مطرقين
كالعميان . إن نجم

أحمد طالع في كل لحظة يشع نوراً من بداية الكون لو أن للكون
بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية . نجم أحمد هو الحق .
والحق لا يبدأ ولا ينتهي . ولا يظهر ولا يختفي . انه موجود
إذن ما الاسلام ؟ وكيف ظهر الاسلام بظهور محمد ،
والمسيحية بظهور المسيح ، واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزوم التفريق
بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الاسلام إلا
أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية
وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية
التي تتحد في الجوهر وتختلف في المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل
بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ،
إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول
التراكيب . فالمفاضلة لا تكون في الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛
إنما المفاضلة في الآثواب

وهنا نخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الآثواب

وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي لا ينبغي أن يخطئ . ولا أن
يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن
الله ، أما الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل
والأنبياء ؟ قبل الإجابة . على هذا السؤال يجب النظر في قضية
أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركب عليه النبي أو
الرسول أثر في أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع
بجائتها شكل الدين الذي يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التي
نشأ عليها النبي دخل في اتخاذ القلب ، الذي أفرغ فيه موضوع ،
النبوة ؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعية في أسلوب ،
الأديان تقع بلا مراة على كاهل الأنبياء . والنبي إذن مسئول عن
الطريق الذي اتبعه للإيابة عن الحق ، مسئولية ملقاة على
شخصيته ، التي صبغت الشريعة بصفتها . وعلى قدر المسئولية
تكون العظمة ؛ وعلى قدر الشخصية ، ذات الوجود الفعلي
تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فإني أستطيع القول إن النبي أو الرسول
لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل انه لا يستطيع الدنو
من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبي العربي ،
وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبي لا يستطيع أن
يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . وهي ملكات
تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب
التي جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس .
ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل
مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتري ذكراً أنه بشر
خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا
الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله . وأنه في
كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لاوحى يهديه السيل ،
يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل في معارك بدر وأحد
والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله .
وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل انه أعلن
ذلك الميل لعله أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق
في البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو
يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الاسلام ظاهرة بين سائر الأديان . فهو

به كل النفوس وكل العقول . فإن الدين ، المثال ، هو الدين البسيط . وهل أبسط من الإسلام شريعة وهي لا تعرف رجال دين . ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرقه يأكلون منها ويكثرون ، ومن الدين ، مهنة تدر الرزق وتعطي متاع الدنيا . ؟ إن أولئك الذين يجعلون الدين ، سلماً ، للدنيا ، لا الدنيا ، سلماً ، للدين ، قد طردوا الإسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحاً باسمه باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احترام فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النهر العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة التي لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضعها المبدع الأعظم . إذا تم ذلك للإسلام في هذا العصر فلسوف يأتي يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على أطام بلادهم يصيحون في كل حول صيحة ذلك اليهودي :

« لقد طلع نجم أحمد ! » نرفيس الحكيم

ظهر كتاب

الحاكم بأمر الله

وأسرار الدعوة الفاطمية

بقلم محمد عبد الله عنان

مؤلف مصر الإسلامية ومواقف حاسمة في تاريخ الإسلام وابن خلدون
وديوان التحقيق وغيرها

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته
العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسسى ؛ وعن نظم
الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار

الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد في نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث
أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٣٠ قرشاً والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ورطلب من المؤلف بعنوانه بشارع المهامي نمرة ٢١

ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدايع

وسائر المكاتب الأخرى

دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسابرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد في إدراك الحق ، كان أسلوباً مستقيماً . فهو قد أدرك أن معنى الحق إنما هو السبب ، الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو النظام ، إذ لا يتصور أن تكون الفوضى ، من عناصر الخليفة . بل إن الفوضى ، إذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ؛ بل إن كلمة الفوضى ، لا محل لها إلا في أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للانسان والأشياء مخالفة لله ؛ وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يتناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه يصيرته التورانية النافذة ، فجاء أسلوب الإسلام في الإفصاح عن الحق ، واضحاً جلياً ؛ لا يأمر بالرهبة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله . لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها . وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تغلب على عناصر الفناء بما هيأ لها من مناعة طبيعية . أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدوية

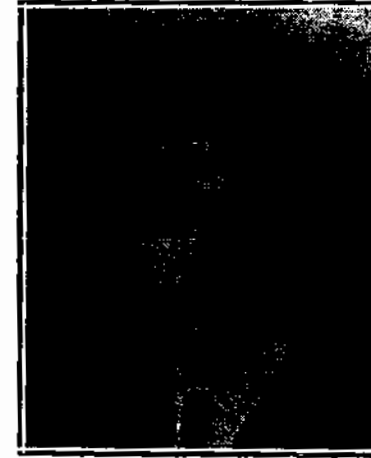
فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مرأ هو دين الصحة في كل شيء . فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثروة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدمها ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نفزو

الاسلام

بغداد ١٣٥٥ سنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

مضت خمسة وخمسون
وثلاثمائة وألف عام منذ
هاجر الرسول وأصحابه إلى
المدينة. طوى التاريخ خمسا
وخمسين وثلاثمائة وألف
مرحلة منذ خرج محمد
وأصحابه يحملون دعوة
التوحيد والأخوة، وكلمة
الحق والعدل والحرية -



ركم الزمان على عام الهجرة أربعة عشر قرنا ونصفا وما زال
يحرق الحجب نوره، ويلوح من خلال الأجيال سناه.

مضت أربعة عشر قرنا في جزر التاريخ ومدة، وغير الدهر
وخطوبه. قامت دول وزالت دول، وقويت أمم وضعفت أمم،
وحيت مذاهب وماتت مذاهب، والأرض ترجف باعتراك
الانسانية واختراب الأديان، وتدوى بالآراء تصادم، والأفكار
تتقاتل، ومن وراء هذا مخلق يغلب مُخلقا، وسنة تُميت سنة،
وآية تنسخ آية، وأثر يبقى على أثر.

فأين الاسلام اليوم من مُبتدئه؟ وأين بلغ المسلمون بعد
أربعة عشر قرنا؟

قال كاتب أوربي منذ ستين إن دعوة الاسلام قد انتهت،
وإن الاسلام قد وهن، ولم تبق فيه قوة تحرك الأمم وتسير
الأجيال.

أحق أن الاسلام قد انتهت دعوته، ودرست آياته، ولم تبق
إلا أسماء وأوهام ورسوم وأعلام؟ هل الاسلام اليوم لاتنبض
به القلوب، ولا تشق به العزائم، ولا يقيم المثل العليا للعمل في

هذه الحياة، أصار الاسلام تاريخا دابرا، وانقلب مجدا ماضيا؟
هل طفئت النار، وأقوت الديار؟

ما هي دعوة الاسلام؟ دعوة ذات شعب تتناول العقائد
والأعمال، وتهيمن على العقل والقلب، وتحيط بالجماعة من أقطارها،
وتشمل الأمم جميعها، ولكنها في أصولها ترجع إلى أمرين:
التوحيد - توحيد الله وتوحيد النفس بتخليتها من الأوهام
المتنازعة والخرافات المتهافنة وإقامتها على طريق بينة لا حيرة
فيها ولا ضلال؛ ثم توحيد الأفراد في الجماعة بالعدل الشامل
والتسوية التامة، وإعطاء كل ذي حق حقه، لا عبد ولا حر،
ولا سائد ولا مسود، ولا رفيع ولا ضيع؛ ثم توحيد الجماعات
فلا شرق ولا غرب، ولا عربي ولا عجمي. والأمر الثالث: العمل
الصالح: أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، إلى العمل
لإقامة الحق وهدم الباطل، ونشر العدل ومحو الجور - أن تمتلي
القلوب نارا تحفرها للعمل، ونورا يهديها السبيل، وتسمو
النفوس عن الصغائر والدنايا، وتطهر من الاحقاد والضغائن،
وتحرر حتى تأتي على القيود، وتتسع على الحدود، وتنطلق في
السكال إلى أبعد غاية

فهل انتهت هذه الدعوة الاسلامية؟ هل أظلم قلب المسلم؟
هل ذلت نفسه؟ هل ذهب الخشوع بآماله؟ هل رذذ البهر إلى
الصغار، وأنزله اليأس إلى القرار؟ هل ينس المسلم من السيادة
ورضى أن يُسلم قياده؟

كلا كلا، إن في الاسلام من المثل والأخلاق والفضائل والعزة
والإباء والسمو والتاريخ الوضاء ما يملأ المسلمين حياة وآمالا
وطموحا واحتراما. لم تنته دعوة الاسلام ولكنها اليوم تقوى
وتعظم، وقد تبها الزمان لها ومهدت الحادثات سبلها. بدأ الاسلام
دعوته منذ أربعة عشر قرنا ولكنها لم تبلغ غايتها وأجدر بها
اليوم أن تبلغها

ما تزال النفوس الانسانية طامحة إلى السمو، نزاعة إلى الخير،
مفعمة بحب الحق والعدل، تواقفة إلى الأخوة والحرية. فلن
تقف دعوة الاسلام. ما يزال المسلم الحق يرى نفسه خليفة الله
في الأرض، مكلفا أن يقيم العدل بين الناس، موكلا بنصرة
الخير ومحاربة الشر، أنى كان ومتى استطاع. كل الأرض داره،
وكل الزمان وقته. فلن تقف دعوة الاسلام ما يزال المسلم ينطوي

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان؛ ونفس لا تصف،
وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد في عقله وقلبه، ولا يزال مجد
الاسلام ملء جوائحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره.
فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت
الخلق العلي والقلب الأبي في نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام في حماية
أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الاسلام إن ابتغى في غير أولاده حماة!
وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! يا حشرة على الحق إن
اتمس من الباطل حاميا! ويا خسران العدل إن ابتغى من الظلم
ناصرًا! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن
أنجبتهم العصور من أمته وأبطاله!

إن في دين المسلم، وإن في قلب المسلم، وإن في خلق المسلم،
ما يربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبت به في كل
كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة
في المشرق والمغرب، وغزوتهم بالسلاح والفتنة والفرية،
وكدتم لهم في السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى
إذا ظنتم أنهم هانوا وذلوا، ويشوا وملوا قلم: لهم أيها الضعفاء،
فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شدا ما قسوتهم على المسلمين! ثم شدا ما رفقتم بهم!
أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بني الاسلام ثبتوا
لكم وسخروا بقواكم وفتونكم وأساطلكم وجيوشكم وطياراتكم
أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد
العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادي
يصابرون الأكيد الصوادي
ويا كلون الجوع في البوادي
قد يشوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب في الجلال
ونصرة الرحمن للعباد

أبت لهم كرامة الاسلام
أى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشارع الحام

فلما تكسر في أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق
على عزائهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار
في الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون
في الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجوعهم ونعيمهم
ودعهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة
نثار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة
الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تنته دعوته، ولم
تضعف كلمته، وسيتق كلمة الله في الأرض، ودعوته إلى الحق.
وحجة على الخلق، في أمره بالأخوة والحرية، والعمل في الحياة
على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية
لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذلل، ودعوة إلى العمل لا تقتر.
ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق
والوفاء. فإن دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل،
وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء،
والصبر على اللا واء، والموت في سبيل الحق، والخلود من وراء
الموت.

عبد الوهاب عزام

من حديث الشرق والغرب

رسائل وأقاصيص

تأليف الدكتور

محمد عوض محمد

نسخة ١٢ قرشاً صاعاً

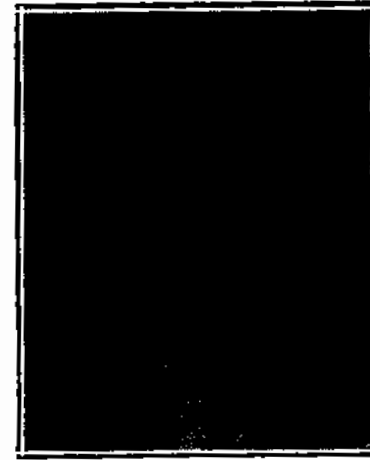
ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكتبات

الربيعية في الإسلام

العلاقات بين مصر وبيزنطية

في عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان



كانت بغداد محور السياسة الإسلامية في المشرق يوم كانت الدولة العباسية في ذروة قوتها وفترتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ يصرها إلى بغداد قلب الإسلام النابض ، ترقب

حركاتها ومشاريعها ، وتحوط لغزواتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخجف فيها فتوة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التي بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافة ، غدت في ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تبحر بمختلف الاطباع والمشاريع ، وألقت الدولة البيزنطية في قيام الدولة الحمدانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب انقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الإسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفره جيوشها وأساطيلها ما يندر بتفاهم الخطر ، وأدركت أنها

تواجه على يد هذه الدولة القوية فتوة إسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها في يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذي كان يهددها في موطنها الجديد ، ويكاد يندرها بالمحو والفناء العاجل . وألقت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الإضطراب والفوضى ، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحمدانية في حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية إستبقاء لحياتها ، وإتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمي تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا في سواحله واستولوا على أنطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يسيطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفي عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألنى الفاطميون والروم أنفسهم في سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والوهن في عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما في عهد الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الاتقاض أو الخروج في المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاثة بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثاني بنفسه إلى الشام وغزا حص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير في حوادث الشام ، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أبدره في الطريق ؛ وخلفه ولده

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها في البلقان وأرمينية، وقنعت من الشام بانطاكيا، وهذا النضال بين الدولتين حيناً، وتحسنت العلاقات بينهما؛ ولكن سياسة الحاكم بأمر الله إزاء النصارى، واشتداده في مطاردتهم، وما اتخذ من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والاديار، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) بيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية. وحفيظة الكنيسة الشرقية التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية في المشرق؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل في سير الحوادث. وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد في تلطيفها، وكان لها حسبها تؤكد الرواية أكبر يد في تدير مصرع أخيها وانقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة. فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم، وقام ولده الظاهر في عرش الخلافة بتدير ست الملك ورعايتها، عادت الخلافة الفاطمية في الحال إلى تساعها المأثور نحو النصارى، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم، ولاسيما كنيسة القيامة، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤ م) ويطلعه على ما اتخذ به بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم في أموالهم وأنفسهم؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته، ورده بلاط قسطنطينية بلطف، فعاد ادراجه، ولم يمض قليل حتى توفي باسيل الثاني (١٠٢٥ م).

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضي في سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية؛ ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت في الأعوام التالية في عدة معارك وحروب محلية في حلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين، وهزمت أمامهم غير مرة، فإن حكومة القاهرة لم تشأ أن تتدخل في تلك المعارك ولا أن تنهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين؛ ووفعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله والامبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

الحاكم بأمر الله طفلاً، وتولى تدير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلي؛ واضطربت حوادث الشام حيناً، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة في صور، وسار الروم في البر والبحر لموازرة الثوار؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف، فبعث إلى الشام بجيش كبير، استطاع أن يخمّد الثورة، وأن يهزم البيزنطيين في عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م)، واضطر باسيل الثاني أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى. ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال:

وهكذا لبثت الشام مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية. كانت السياسة البيزنطية ترى في قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطراً جديداً عليها، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها، ولم تكن تجيش في ذلك بأكثر من نزعة دفاعية، بينما كانت الدولة للبيزنطية تجيش في عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع. وكانت الخلافة الفاطمية تنوق إلى اقتمام الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور في الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكري، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية، فبعث إلى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة، فاستجاب باسيل الثاني لدعوته، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة؛ واحتق البلاط الفاطمي بالسفير البيزنطي احتفاء عظيمًا وزين الديوان الخلفي لاستقباله زينة تنوء الرواية بفخامتها وروعها؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطي وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية، وقام بالمهمة؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشرين سنة؛ وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح أنها وقعت في أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م).

الدولة في الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلائهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقب ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الإسلامية ؛ تلك هي ثورة الحروب الصليبية التي اضطرت منذ أواخر القرن الحادي عشر ، وسرعان ما ظفرت بانترزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية في بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية في الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلاقات الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرب ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة نمائلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عناه

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى اعادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلية في حماية الامبراطور وتؤدي له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلي عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى ان يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وأن يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام في عهد المستنصر بالله

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شؤون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلاقات بين مصر وبيزنطية ، وجانت مصر في أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٤٤٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الامبراطور قسطنطين التاسع أن يعده بالغلل والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الامبراطور توفي قبل تنفيذ الاتفاق ، خلفته الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباه المستنصر ، واضطربت علاقات الدولتين ، واشتبك الفريقان في عدة معارك شديدة في البر والبحر ؛ وفي سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضي أبو عبد الله القضاعي ليحاول تسوية العلاقات واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تفاهم معهم ، وأخفق سعى السفير المصري ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشام ، وتطورت حوادث الشام في الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانزعجت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعفت قوى



لكل جديد لذة ورواج

إدارة نشر وترويج الصحف الإسلامية تقدر هذه الحقيقة. فبادر دائما بأن تسبق غيرها وتقدم لعملائها كل جديد من الصحف والكتب الحديثة حال ظهورها. قبل أن تتداولها الأيدي. لأنها تضع مصلحة عملائها نصب عينها وتسهر دائما على أن تجلب لهم كل ما فيه يسرهم ورضاؤهم لا اعتقادها أن في يسرهم ورضاؤهم يسرا ورضاها لها. وأن تقدمهم يعود عليها كما يعود عليهم بالخير والبركة. فلا تزال دائبة على أن تنهز أعمالها أعظم الفرص التي تكسبهم الشهرة والرواج ودوام الحركة فبادر حالا بأن يكون اسمك في قائمة عملائها المديدين في الشرق والغرب ، وقدم لها الرصيد الكافي لطلباتك فكل طلب لا يكون مصحوبا بالنقد لا يلتفت إليه . والادارة لا ترسل بضائعها بطرق التحويل ما لم يصلها معظم الثمن ، وأسعارها محددة لا تقبل مساومة شعارها دائما : الدين المعاملة ، والتعاون على البر والتقوى

ليتني كنت أدرى!

للدكتور محمد عوض محمد

١

ليتني كنت أدرى!
ما طواه الغيبُ من نيلٍ وويلٍ
وشقاءٍ لايس ثوبَ نعيمٍ
وظلامٍ أقتَمَ الوجه بهيمٍ
وقضاءٍ مبرمٍ في جنح ليلٍ
ليتني كنت أدرى!

٢

ليتني كنت أدرى!
يومَ أن سرت على النهج القويمِ،
لم أجدُ عنه يميناً أو يساراً
مُديناً طرفي وقلبي وجناني،
في طريق ضيقٍ، واهي الأديمِ
يملاً الجفث تراباً

..... وشقاءٍ وغباراً.....
أن من حولي جناناً
وهواءٌ خالصاً.....

يملاً القلب صفاءً وسروراً وفخاراً...
عالمٌ قد حُفَّ بالخير العميمِ
ساحر النظر موفور النعيمِ
ليتني كنت أدرى!

٣

ليتني كنت أدرى!
حيناً ألبستُ ثوباً من حديدٍ
ليس يبُلَى.....
كي يقيني حادث الدهر العنيد...
أنتَ سيقدر الجسمَ مَضَى
ومعنى القيود...
والفؤاد الحرَّ رهناً

بسلامٍ وجودٍ

يقتل الروح على الأيام قتلاً...
ليتني كنت أدرى!

٤

ليتني كنت أدرى!
حيناً أمسكت كاسي يميني،
أحتسى منها رحيقاً وسُلاقاً،
شَرَّهاً لا يروى مني غليلُ
نَهَمًا لا أبتغي عنها انصرافاً،
أننى أشرب من داءٍ دفينٍ
أننى أرشفها سماً زعافاً
ليتني كنت أدرى!

صوت الآله!

أنصتي يا جبال! قد هدا الليلُ وأرخت جفونها الظلماء؛
ومضى اليوم مُتعباً ينشد الأمنَ وقد كدَّ ظهره الإعياء،
وسرَّت في الوجودِ لهفةً مشتاقاً لمعنى ينشق عنه الفضاء...
جُم الكون رابضاً رهف الأذن ليرى توحى به العلياء:
لنشيء يسرى إذا سكن الليلُ فتروى به النفوس الظلماء:
نعمٌ يترك النفوس وفيها منه نور وروعة وصفاء؛
أنصتي يا جبال! قد هدا الليلُ وأرخت جفونها الظلماء!

أنصتي يا طيور! قد سكن النسرُ وآوت لوكرها العنقاء،
وغطاء الظلماء قد شمل الما لم فالتبع والجمال سواء؛
فاستكني في الوكر أو فاستقرى فوق غصن تبلى الأنداء
وأقلِ الإنشاد! فالدهر والمال والليل كله إصغاء:
لغناء ينساب كالجدول السا حر؛ ما للقلوب عنه غناء!
لا تعيه أذن السمع ولكن يملأ القلب حسنة والرواء...
أنصتي يا طيور! قد سكن النسرُ وآوت لوكرها العنقاء...

محمد عوض محمد

الذى نريده

للاستاذ عباس محمود العقاد

ما الذى نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين ؟
الذى نريده كثير جدا من الطمأنينة التى مصدرها الشعور
بالقوة، وقليل جدا من الطمأنينة التى مصدرها عدم الشعور
نريد أن نحس ذلك القلق الروحى الذى يحسه الغربيون على
أثر كل معرفة جديدة، وفى إبان كل اضطراب جلل، وفى أعقاب
كل دولة دائلة وفى مطالع كل مرحلة مقبلة. لأن القلق علامة
النمو والحركة؛ والنفس تنمو فيضيق بها كماؤها، وتشعر بالخرج
والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها. وتحاول أن تخلع ما ضاق
ورث، وتلبس ما اتسع وحدث، وهذا دواليك ما دامت تنمو
وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار
أما الطمأنينة التى تستقر بصاحبها لأنه لا ينمو ولا يتحرك،
فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها: أرايت الحيوان
الإعجم تفارقه الثقة قط ؟ كلا ! إنه يشيع ويسمن وينظر إلى
الدنيا نظرة الرضى والتحدى كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء ...
وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية، وأوفى على
الرجاء حقا ولكنه رجاء أخيب من القنوط. وشر ما يبتلى به
المصرى والشرقى هذه الثقة وهذه الطمأنينة. فاللهم كثيرا جدا
من القلق، وقليلًا جدا من الراحة والركود

الذى نريده كثير جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه لأنه
نقى جميع الشكوك، وقليل جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه
لأنه يجهل الشكوك

الذى نريده كثير جدا من الخيال الذى لا يزال ينقلنا من
واقع حسن إلى واقع أحسن، وقليل جدا من حب الواقع،
الذى لا يخرجنا عما نحن فيه، لأن النوم واقع عند النامين، والجهل

واقع عند الجاهلين، والفقر واقع عند الفقراء، والأسر واقع
عند المستعبدين

زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام
ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه ! ألا ليت الشرق يحلم
ويتخيل، لأن الذى يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح
إن الطيارة، هى واقع اليوم ولكنها خيال الأمس. وهكذا
ينتقل العاملون من خيال إلى واقع، ومن واقع إلى واقع غير
الذى كان.

وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم، وواقع عندنا بالأمس،
وواقع فى جميع الأزمان، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم
وتتخيل فنطمح ونأمل ونجيا ونعمل، ونسوق الدنيا معنا من حال
إلى حال، ونخرج بها فى ركابنا من نطاق إلى نطاق

ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام، ولكنها هى
واقع العاجزين والضائعين، لأن خبزها هو خبز المائدة، غير أنه
مفقود ليس بما كول؛ ولذتها هى لذة المخدع، ومخدعها هو المخدع
الذى ينال بالدرهم والدينار، لولا أن الدرهم والدينار ناقضان !!
ومن يحقق ألف ليلة وليلة لا يحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً،
ولكنها يحقق الواقع، الذى عرفه الناس من أقدم الأيام ولا
يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام، وهما أيضاً من أوقع الواقع
وأحس المحسوسات !!

فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة،
بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل
هذا الخيال

ألف شرق يدين بواقع العاجزين فدى لشرق واحد يبيع
العيش الصغير بالأمل الكبير، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من
طبقة إلى طبقة، ومن مجال إلى مجال

نريد كثيراً جداً من الذوق، الذى مصدره الفهم واليقظة
والدماثة.
وقليلًا جداً من الذوق الذى مصدره التأثر والسقم والاصطناع

لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالثني والتأوه كما يتحلى بهما النساء

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يرمون بالجد كما يرم به الصغار الهازلون

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل في ميدان، ولا نافع لبني الانسان، ولا يجتهد بحسن الاجتهاد، ولا فكه يحسن الفكاهة، ولا رجل عظيم أو مقبول في زمرة العظام شبع الشرق من هذا الذوق، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح، وهو من شبعه أجوع بمن صام الف عام

أما الذوق الذي لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذي يحس الصغائر لأنه يحس كل شيء، لا لأنه على الصغائر موقوف، وفي الصغائر محبوس ومقصور

وهو الذوق الذي ينفذ من «البوتقة» لأنه جوهر حميم، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيت والغشاء المصبوغ

الذي نريده كثيراً جداً من الضحك الذي معناه الاقبال على الدنيا والاضطلاع بالاعباء والقدرة على التبعات

وقليل جداً من الوقار الذي معناه التهيّب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ما وراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح الضحك ملء الصدور والخناجر خير من الوقار ملء اللحي والتجاعيد؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر في ميدان الكفاح خير من الوقار المحجم كأنه نجأ الهارب من الميدان، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان.

الذي نريده كثيراً جداً من الحرية التي تعرف الحدود، وقليل جداً من الحدود التي لا تعرف الحرية. فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب

ان الحرية التي يتبعها الرقيب هي منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود

أما الحرية التي تعرف حدودها فهي حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد، لأن الحر الذي يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمي الحدود

الذي نريده بين القديم والجديد أن نمتلي بالحياة، فاذا بالتعبير الصالح الجليل ينبثق من تلك الحياة

فليس القديم بضائرنا اذا حيننا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير

وليس الجديد بنافعنا اذا عبرنا محدثين، ونحن غير أحياء وغير شاعرين

ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلاً منا

وليست آفتنا قلة الشعر الجديد، بل قلة الشعور الجديد

وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التي تستحق أن تكون قصة، و«الواعية» التي تستوعب تلك الحياة

وليست آفتنا كساد المسرح، بل آفتنا أننا في مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول؛ ولو كانت لنا في مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية في أدوار الممثلين، محكية في أقوال المؤلفين

الذي نريده أن نفهم ما نريد وأن نتجز ما نريد، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الارادة. فانك إذا قلت لسامعك

إنك تريد شيئاً من الأشياء في يوم من الأيام فقد فهم ما تقول، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت في الموعد الذي

طلبت، وهذا هو الفهم الأصيل

الذي نريده كثيراً جداً

وقليل جداً إذا استطعناه، وإنا لمستطيعوه ببركة العزم والايمان

عباس محمود العقاد

الجزيرة والتاريخ الاسلامي

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

منذ بضع سنوات
— ست أو سبع —
زرت الحجاز وقضيت
فيه أياماً أنظر وأسمع
وأفكر . فرأيت أني
أصبحت أحسن فهماً
للتاريخ الإسلامي
والادب العربي وأقدر
على تمثيل الصور



والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لي قبل ذلك . ولهذا اقترحت على صديقي الأستاذ الدكتور هبكل بك - لما شرع يكتب " حياة محمد " وينشرها فصولاً في السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الاسلامي من ذلك . والحجاز بلاد متحضرة ولكنني مع ذلك اهتمت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعنى وتبين ما أقصد إليه . فمن ذلك أني دعيت في جملة من دعوا إلى الغداء في " وادي فاطمة " وهو واحة جميلة في صحراء جرداء وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله في " رحلة الحجاز " فلا أعيد هنا . ولكنه اتفق أني ذهبت أتمشي بعد الأكل مع بعض الاخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أهدنا إن في السرايق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقى واحد تخلف معنا معتذراً بأنه " أكل البارحة " فاستغربت قوله هذا ولكنني كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالي إلى كلامه أو أن أعيره التفاتاً . ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوّف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام في الجزيرة ، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم

ابن السعود ، فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارح لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة . وأعنى به " خالديك الحكيم " فتذكرت قول ذلك البدوي في وادي فاطمة " أكلت البارحة " وقلت لنفسي إنني قد وقعت على الخير فلا سأله فلن أجدر أدري منه وأعرف . فقال لي إن هذا معقول ، ولو أن البدوي قال " أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم " لما كان ذلك إلا طبعياً . وذكروا لي أن البدوي يذهب في الصحراء ماشياً على قدميه أو راكباً ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللقافة - ويسمون العقال عقالا لأنه في الحقيقة جبل يعقل به البعير - ويلتف بالعبادة ويتأثم ولا يكاد ينس بحرف . فاما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذي تتطلبه الصحراء - والكلام جهد فهو إنفاق - وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه . ويظل ماضياً حتى يبلغ مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقي ماشاء من اللبن ويمضي عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم يرويه وسقوه اللبن لأن مثله ممن ينحرقهم القوم . ثم يتفق أن يأتي قوماً نحروا لضيف كريم فإذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام ، أقبل على " اللحم والأرز " من هم دونهم مقاماً ، فيقعد الرجل ويهر من اللحم ما شاء ومن الأرز ما أحب . قال صديقي " وصدقني حين أقول لك إن هذا البدوي يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز . وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياماً - عشر أو عشرين أو أكثر أو أقل - لا يجد من الطعام إلا اللبن وقليلاً من التمر أحياناً فإذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للمضم .

فلم يسعني إلا أن أفكر في أمر هذا البدوي الذي يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجيدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن . التمر أحياناً . إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلاً . ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التي لارقق فيها من حرب وسعى وأسفار في الفيافي المهلكة فإن مثله يعدل ولا شك ألف جندي من جنود الدولة الرومانية المتخنة ، ولا عجب إنذاراً إذا كان بضعة آلاف من هؤلاء

البدو الأشداء الخشنة المعروين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمتعهم أن يهربوا ويفروا . . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربي — أعني البدوي — فلم أجد لها قيمة . وما عسى أن تكون قيمتها عند من لا يكاد يجد طعاماً أو ماءً ، ومن لا يكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها . أولم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى ينس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة ؟ . وحدثني غير واحد ممن لقيت في الحجاز أن المرء — بعد المعركة — ينجى إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به ، ويتفق أن يكون قد قتل في المعركة ، فلا يزيد على أن يقول لك « بُح » ، يعني « ذُبِح » ، ولكنه يأكل الذال في النطق فلا تسمع منه إلا « بُح » . ثم لادمع ولا أسف ولا حسرة ولا لطفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرأ به الموت . فكان حياة البدوي الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفترقعه . وما قيمة القتل في حرب أو نحوها والحياة معرضة للبوار والتلف في كل ساعة ؟ ؟ وتصور كيف يكون إقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ما عسى أن يكون من إقبال غيرهم من أبناء المدينة والترف والبذخ على القتال . إن الذي يقبل عليه البدوي ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التي كان يحياها . وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الخفأة الذين لا يملكون إلا السيف والرمح والايمان المستغرق ، اكتسحوا دولاً كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً ؟ .

ولست ترى في الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا . والناس يعيشون في هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شيء . بعد ذلك ، لأنهم لا يعرفون المغالة بقيمة الحياة إذ كانت لا قيمة لها عندهم . ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم

مقبرة مثل مقبرة « جنوى » التي يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها ، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التي انحدرت على العالم المتحضر في زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته . ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب ، بل قلبتها عرية صرفاً . وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية — كما لم يستطع البيزنطيون — أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم — لأن الفرس كانوا أقل تحشناً من البيزنطيين . ولست مؤرخاً ولكني أظن أن هذا هو السبب ، يضاف إليه أن البلاد التي فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت أجنبية لارومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومي في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً . لأنه لم يكن هناك في الأصل . ولهذا بقيت فارس شوكة في جنب الدولة العربية .

وقد زرت العراق وسورية — أو كما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام — كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل في الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولاً ثم إلى العراق ، فإن طبيعة الأراضي الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون مقر دولة مترامية الأطراف عظيمة الرقعة . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقي الحجاز مقر الدولة العربية في صدر الإسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، —

لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعي لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما في اليد إلى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هي مركز الدولة . أما في زمن أبي بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر في قلب الجزيرة أولاً قبل إمكان التفكير في

في رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ علي الطنطاوي



... منى، عبدالله،
حذراً، بتلفت إلى
الوراء خشية أن يراه
بعض سفهاء قريش،
فيقطعوا عليه سبيله،
فلم ير أحداً. وكانت
طرق مكة خالية لأن
الناس قد أموا الحرم
ليجسروا في مجالسهم
كعادتهم في كل مساء
فاطمان وسار قدما،
حتى إذا خرج من مكة
وجاوز الحجون.
واتسع الوادي أمامه

وانفرج، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار؛ ونظر... فراقه منظر
الغروب. على هذه السفوح والذرى، وأحس بجلال الموقف،
وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق. وهذه الصخرة التي تعم كل
شيء، فنتى غايته ووقف ينظر... رأى مكة تلوح أبنتها من فرجة
الوادي، وتبدو الكعبة قائمة في وسطها، والأصنام التي تحف بها
تظهر على البعد كأنها لطح سود... فذهب به الفكر سريعا إلى
ذنبك الرجلين اللذين تركهما صباحا في الغار. وذهب يتحسس لها
خبر قريش... ويعلم عليهما. ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأباه
الصديق (١)... فخاف أن يكون قد أصابها شر، فأغمض عينيه عن
هذه المشاهد، ومضى في طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت
في المنجد والظفر، وآثرت هذه القرية الجائمة بين هذين الجبلين
كأنما هي مخوفة في صندوق من الصخر. على السهول والجنان
والمدائن التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودها إليها وانصرفت
عن الرأية التي دفعها إليها محمد، لتسير بها إلى أرض النخيل والاعتاب

(١) انظر كتابي «أبو بكر الصديق» صفحة ١٠

غيرها. وأما في زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل
أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر. نعم فتحت البلاد في
عهده، ولكن الفتح يستدعي التمكن والتوطيد أولا. ثم إن عمر
كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة، وكانت صلته بالنبي عليه
الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة، حتى لو كان
كل شيء قد استقر وانتظم. ولم يكن قد عاش في الشام أو مصر
أو العراق حتى تبدوله مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة
أخرى. وأما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع
وانقسام، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة
ثابتة نهائية في مكان آخر غير الحجاز. ولما انتهى النزاع بفوز
معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها
كمركز للملك ومقر للدولة التي شاهدها بفضل ما تولى منها في
الفترة السابقة.

وبلاء جزيرة العرب أنها مجذبة قاحلة، فإذا امتدت لها رقعة
ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها، لأن الحياة في غيرها
تكون أرغد والعيش أطيب. والمرء يحن إلى الراحة والدعة
مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف، وفرق بين هجرة
تدعو إليها كثرة السكان، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل.
ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هي ذات
موارد كافية إلى حد ما. ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار
المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة. ومن
ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق
لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً في
قلب بلاده. وما دامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام
والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على
النزوح. وبذلك صارت الجزيرة أختل من الناس وأقل صلاحاً
لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة. وقد يتغير حال الجزيرة
في المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل
أرضها عقبة في سيل الحياة. ومهما يبلغ من غناها في المستقبل فإنها
ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على
أن كلامنا على الماضي الذي لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى
ذلك مما جد في الدنيا لا على المستقبل الذي هو غيب.

ابراهيم عبد القادر المازني

فكر « عبد الله » في هذا وهو يتسلق الصخور ، إلى الغار ، وكان لطول ماسمع من حديث الاسلام شديد الرغبة في توحيد العرب ، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن « في الشام والعراق » من الحكم الاجنبي ، وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب ، أثمرتها في رأس « عبد الله » الدعوة التي استجاب لها ، وآمن بها ، واستسلم عبد الله إلى أفكاره ، وأطلق لها العنان ، وشمل العالم كله بنظرة واحدة ، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة ، حرأ لم تذله تلك الأنظمة الجائرة ، أيا لم يألف طغيان الملوك ، وجبروت الأباطرة ، ليختم صفحة الماضي السوداء ، ويفتح في التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرّب ، ولم يعد صالحاً ، ولا بد من شعب قوى ماهر ، يهدم هذه الأطلال البالية ، ثم ينشئ بناء جديداً . إنه ليس في العالم إلا ثلاث كتل كبيرة ... كتلتان تصارعان صراع الديكة ، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى ، فسالت ديماء الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لغزو قرمزية حرام ، يمتازون بها من « سواد الشعب » وطاحت جماجم الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون ، لأنهم سينبشونها برجا ، يترفعون به عن غمار الشعب هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية ، وهناك كتلة أخرى في زاوية الكون نائمة على ضفاف « الكنج » ووراء « همالايا » لا يدري بها أحد ...

أهم تشقى ليسعد أفراد . شعوب قضى ليحيا رجال . مدن تحرق لتشعل منها « سيجارة » إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد ! فن هو الذي ينقذ العقل البشري من قيود الجهل والاستبداد ! من هو الذي يحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة ؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقم على أطلالها صرح الحضارة ؟ من الذي يهد السيل للمستقبل المنتظر ، لعصر الراديو والطيارة ؟ لعصر العلم والفضيلة ؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة ؟ لعصر السوبرمان ... لا أحد !

كل شيء هادىء في العالم !
إن القافلة تمشى يظم في عرض البادية ، قد خرّس الحادى ، ومات الدليل ، إنها تمشى نحو الموت !
إن السفينة تتخط في لجة اليم . تميل وتضطرب ، لم يعد لها أمل ، قد هبت العاصفة وطنى الموج ، وغرق الربان !
يا من يهدى القافلة الضالة ؟
يا من يخلص السفينة الخيري ؟

فتركها في دمشق والاسكندرية ، وعلى إيوان كسرى . وفضلت عليها رايتها التي لم تتعود الخفق في سماء الممارك الكبرى ، ولا ألقت الاهتزاز على أسوار المدن المفترحة .. لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها . ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر ، ويعطيها العقل المبدع ، والقانون العادل ، والعبقريه والخلود ، فأبت ، وعكفت على أصنامها وتماثيلها .. فما أعجب عقل قريش ! ونظر إلى مكة مرة ثانية ، فاذا الظلام قد لفها بردائه ، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور يخالط نفسه سرور مهم ، وشعر بزوال هذا الخطر القرشي ، واستروح رائحة الظفر ، فامتلا قلبه أملا ، وجعل يجبل بصره في الأفق الواسع ، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البلق في الشام ، والصروح البيض في المدائن ... قضى يتسلق الصخور إلى الغار ، وهو يقفز قفزاً ، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير !

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى ... ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التي تلهب في أيام الصيف التهاياً ، وهذه الرمال التي تتسلسل إلى غير ماحد ، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة . لقد كان ذلك ، والتاريخ جنين في بطن العقل البشري لم يولد بعد ، وكان وهو طفل لا يبي ، وكان والتاريخ صبي يميز ويدرك ، فرآه فسجله في دفتره ... رأى وادى النيل ، وحوض الرافدين ، يمشيان إلى الخراب ، قد فضبت فيهما الحياة ، فإراعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة ، من وسط الرمال ، فتقذف إلى مصر (مينا) ليكون أول فرعون فيها ، وتلقى بينى كلدة إلى العراق ، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر ، يفتحون حقايب أدمعتهم ، فيخرجون منها الحضارة الأولى ، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن ، وتدور الأفلاك ، فتطحن الناس ، وتحطم الحضارة وتطحن الشعلة ، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد ، وتسمع الصحراء فتنبها وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط « مجموعة بشرية » عرفها التاريخ القديم ، ثم تاتي بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم ، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة في العالم ، وتنشئ في كل موضع « مستعمرة فينيقية » هي في الحقيقة مدرسة عالمية ، كان من أهم من تخرج فيها « اليونان » ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى ... ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى !

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحى العقل المهان ؟ يا من
ينفذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من يجيب ، كل شئ هادئ في العالم !

بلغ السيل الزبي ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فلفت الناس
فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنايس ، فأمرأ يوت الله ، ونفضوا
أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت في وجوههم
كل الأبواب ، ولكن باباً واحداً لا يزال مفتوحاً فوق رموسهم ،
هو باب السماء .

وسموا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين ، علوا أنه
سيبعث نبي جديد ، يطهر الأرض ، وينشر العدل ، يخرجوا فرحين
مستبشرين ، قد أحيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار
في سهول العراق الجبيلة ... فتشوا عنه على جبال لبنان الشجرية ،
وحداق الشام الغناء ، فتشوا عنه في المدن الكبرى ، عله يظهر إلى
جانب القصور في القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجيوش البشرية ،
فيبها ويزلزلها ، فتشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج
في السهول ولا في الجبال ولا في المدن الكبرى - ولكنه سيخرج
من حيث أنبثت الحياة ، من حيث يزغ فجرها من حيث خرجت
الحضارات الأولى ... من الجزيرة

تلك هي أم العالم فليجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

فتشوا عن النبي المنتظر في كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف
الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ،
ودبس الحق ... فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنايس . فسمعوا
فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة ...
يا شعوب العالم !

استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التي ستغمر العالم
- ونفسه من أدراان الماضي - لقد نشأت من غار عال منقطع . في قة
جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثار والرياحين -
نحو أرض المدنيات ... لقد ابتداء اليوم أكبر حادث تاريخي : إن
ركاب النبي المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب -
إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة
والمساواة ،

فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح ، وعاشت
بجه ، وسألت :

... إلى أين بلغ ؟ إلى أين بلغ ؟

— لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التي
جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئاً ، وحسبت أنها
تستطيع القضاء عليه ، فهي تريد أن ترد النبي فتقتله أو تسجنه ، فهي
تبعث رسلها ، يفتشون عنه في أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ،
ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفصاً ، ولكنهم يعمون عن هذا
الغار العالي المكشوف الذي يطل منه سيد العالم
— أهؤلاء يجرمون البشر من العصر الذهبي المرتقب ؟ ويقضون
على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للجرمين ،
يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون في كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبي !

وانتبه عبد الله ، فإذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من
ذهوله ، وتساق الصخر مسرعاً نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ،
التي لم تفهم قريش معناها - وحسبتها سفراً من مكة إلى المدينة ، لقد
علم أنها انتقال من الماضي الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق
المخير ... فليقفز إلى الغار قفزاً ...

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : ...
يا من يعرفون قيمة الفكر البشري ، ويستمتعون بشمراته ...
يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة ...

لاتنسوا أبداً أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة
الحيرى ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران
غار (حرام) إذ برغت منه أنوار الديانة التي هذبت العقل الانساني ،
وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ
بدأت منه الموجة التي نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، ووقت
على الماضي السخيف ، وحملت إلى العالم أسى المبادئ وأعلاها ، حين
حملت إليه تعاليم حرام

إن هذه الغيران كعبة في التاريخ ، لا ينبغي عقل ولا يمشى في طريق
التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها ...

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم)
نحو الغار ...

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامي ... ماخرج العالم من
الهوة ، التي دفنت إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجيوش
الملوك المستبدين ... ولا كانت حضارة القرن العشرين !

... هذا هو معنى الهجرة ، التي تحتفل اليوم بذكرها ، لحق على
كل متمدن أن يشاركنا في هذا الاحتفال !

على الخطاري

... من الله - سوريا

من صفحات البطولة

سلاميش

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي نال فيها في الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يدي المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصبح

صيحة الحرب فيوقع بعده الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط في رماحه وسيوفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويهيب الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفرس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تهرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر إليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الفواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذبال من صافي الحرير والقصب ؛ وكان الفرس يختال تحت راحته كأنما هو يزهي بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجاد مغوار

ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الأبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة في أمة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجئون أكبر معقل بني للصاري في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شاباً في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لغلته أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق لإشراق الزهرة البانغة ، وقوام عشوق كأنه رمح رديني ، وعينه تلعب

كأنها ربا بفرند سيف دمشق . ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللآمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقتة السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبساً جاداً والجنود من ورائه لا بلغت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة ، فإن هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها إذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصيانتها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الأصفاد ، وجريح في مئاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم ، وخذت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، وأوماً القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينتظرون إلى أكرام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينتظرون إلى قيودهم حائقين ، أو يكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضعة خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الأذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا إليه أن يمن عليهم بالفكك وأن يهبهم نساءهم وذرائعهم تقرباً إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا : حسبك من تقتل من شبانتنا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفالك من الحرب النصر فلا تضم إليه دموع المساكين ، ولهبب الفراق بين الأبناء والوالدين ، غير أن سلاميش بقي على تعيسه ووجومه ولم يجب إلا بإشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبهم .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يهرون شخصاً وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

بعضه فوق كنفها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها ودش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة في لفظها ولا رخامة في صوتها، ولكنه لم يجب بكلمة، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير في بطنه ويشور به شيء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها، وعن تلك الفتاة وبيتها، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية، وأن أباهما كان شديد الولع بتقيفها، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس، وكان لها أخ قتل في أثناء الحصار، ومات أبوها يوم الفتح، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انقراطه فاتهموه بالجبن، وصاحوا في وجهه، أنه اثر السلامة، فحمله الحفيظة مع كبر سنه على الركوب في وجه الجيش الفاتح، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر وسمع سلاميش تلك القصة فأهلت منه زفرة لم يستطع كتبها، وبات الليلة والاحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعاً للتفكير في الفتاة ولا في همومها، وكان كلما تذكر كتابها له تازعت نفسه إلى القسوة عليها، ثم لا يلبث أن يلين، وتعاوده رحته. حتى إذا انقضى اليوم وعاد في المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها، وتقرب إليها وهو يردد ويرفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض:

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس،

فلم ترفع إليه بصرها، بل بقيت جالسة، ورأسها بين كفيها والتفت إلى خوان بالقرب منها، فرأى عليه طعاما لم يمسه. فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء: « وهل تريد أن تموت جوعاً؟ » فلم يجب على قوله، بل حاولت كم يحبها. فقرب منها، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة:

« أقول لك اتركني،

فلم يستطع أن يخالفها، فأبعد يده عنها، وتراجع، ناظراً نحوها، ثم تنفس نفساً طويلاً وخرج وفي قلبه حزن وقلق وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيباً، حتى لحظ أصحابه كتابته، وعجب جنوده لجفائه ونفرتة، فكان لا يأمر إلا متبرماً غاضباً، ولا يسمع إلا متجهمًا ساهماً، حتى عجب الناس من ذلك الغضب، في عقب الانتصار، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللاً بالجمد والتوقيف. وما انتهى من عمله حتى أسرع إلى سرادقه، ووقف هذه

الجنود بالوقوف، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ما هناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جندين يدفعانها ويترددان في حملها. ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة، وفي عينيها حلاوة قد غشيتهما صرامة، وهي تنظر إلى الجندين مرفوعة الرأس كأنها تزهى، جامدة العينين كأنها تتحدى. وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء، لا يكاد يستر من جسمها إلا ما يستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول.

وقد انسدل على كنفها غطاء من شعرها القاسم وهو يلمع في ضوء الشمس الغاربة. فدخلت الرحمة قلبه برغمه، وتمهدت عيسته ولانت نظراته وأشار إلى جنوده بالكف عنها، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فألحست له وصارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان في صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته. ثم عاد وقد أطرق قليلاً حتى علا صهوة جواده. ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظراته وعيسته. وأتى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم في شغل من أمر جيشه حتى أرغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فأب إلى سرادقه.

وتذكر الفتاة التي كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكرها، فأمر غلاماً أن يحضرها إليه، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهي تناضل على ضعفها وتكبر على ذلها، ولم يتالك أن ربت الرقة إلى قلبه، ولم يستطع قهر عبدة ترددت في عينه. وغاب الغلام قليلاً ثم عاد وحيداً فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به، فقال الغلام بعد التجهية: « إنها لا ترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها، فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر، ثم نهض متثاقلاً وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألقاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها.

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال:

« يحزني أنهم أساموا إليك،

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جرة، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحدق مرتسم على عيها، ونار الغضب تضطرم في عينيها، وكانت الملابس الرثة التي أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يدور كالزنبقة المبللة بالندى، ودفعت يده التي مدها نحوها وقالت وفي صوتها بحة: « ابعد يدك عني أيها القاتل السفاك. أدر وجهك الكريه عني فأنت قاتل أبي وأخي، وأنت سافك دماء قومي، وأنت المعتدى على وطني. ابعد عني وافعل بي ما شئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفضاعة جندك. »

وكانت وهي في ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة، وكان صدرها يعلو ويهبط في هياجها، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب

الارتمال الى دمشق بمن معه من الجند . وبأمره فيه بتقسيم الغنائم بين امراته وجنوده وتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووجه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله

وبكر سلاميش قذهب في الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الحظوة منهبل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعاما ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدل في مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه ، بل كان في حديثه خفيض الصوت مهتز الانفاس .

قال لها : « قد أمرني السلطان أن أتحرّك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا ،

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رملها ، وكأنه أحس بما في نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لي حظا من هذه المدينة ، فصاحت الفتاة ومدت نحوه بديها : « إذن فالمدينة في يدك ، فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيب من الغنيمة من في المدينة من الأسرى تاركا للجنود أموالها وتحفها ،

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة : وما ذا تفعل بهم ؟ ،

فتبسم سلاميش نحوها وقال : هم لك ،

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح : هل تفعل ؟ ،

فقام ومد يديه نحوها وقال : لقد أكرمني السلطان العظيم بنصيبه ، وسيكون أثر عينا إذا علم أين ذهبت به ،

فدت يديها وامسكت يديه الممدودتين وقالت : ما اسمك ؟ ،

قال باسم : سلاميش ، فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال : وإني أود أن أعرف ما تحبين فأفقه لك فان دارك هنا لم يمسا أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعي إلى دارك إذا شئت عزيزة في ظل السلطان العظيم ،

ف نظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت في حياء : وأنت ؟ ،

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاي ،

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ، وأنا كذلك إلى دمشق أسير ،

ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد

المرّة مترددا وجلا ، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه في الصباح ، والحران لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تلم منه شيئا

ونظرت إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلميني ؟ إني أرجوك أن تنظري إلى وتطقي بما يجول في نفسك ولو كان قاسيا ،

ثم مديده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا . ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تفضب . وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما في فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهي جالسة في مكانها كشيخة .

جلس إلى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهي لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين في عينيها فتمسحها بمندبل ثم تعود إلى وجوها وسكونها ، فقال لها ولسانه يتم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إني لا أريد إيلامك . لاني لا أستطيع أن أراك مألما . ولو كان ذهاب أملك بإيعادك عني لفعلت . ألك أهل في عكا أو في مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ ان السلطان لن يرد لي طلبا اذا طلبت منه شيئا ،

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعظفا . وكان أول ما قاله له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لي أهل . قد قتلهم جميعا ، ثم شقت بالبكاء واسترسلت في هزة مريرة من الحزن ولم يملك سلاميش نفسه من أن يجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهذا من جأشه وقال لها :

« اتى أرحمك في حزنك ولكني لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائي وكنا معا في ميدان قتال يسمون فيه إلى قتلى كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل لك جمان مصير الا الموت في ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك ان يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلم وهم بين هؤلاء الأسرى ؟ انهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت في اقتنائهم من أجلك ولكنهم في غير حاجة إلى ولا إليك . انني قد رأيتك وبهرق حسنك ، ثم رأيت حزنك فألمني حزنك . ثم تكشفت لي كبرياؤك فقهرت كبريائي ، ولو شئت أن تبعدي إلى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة . وإن أحببت المقام هنا . كنت عندي ولا أقول لي حتى تقولي ذلك أنت ،

ف نظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينيها ذلك البريق القاسي الذي كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم انخفضت بعد أن طبعت في خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء إلى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذي قدم إليها في ذلك اليوم ولم تلم منه قبل ذلك شيئا وفي ذلك المساء وفد إلى سلاميش بريد السلطان يحمل إليه أمر

نسيية

للاستاذ ابراهيم مصطفى

المدرس بكلية الآداب

إذا انحدروا من منى أن يوافوه في الشعب الأيمن بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينهبوا نائماً ولا ينتظروا غائباً وأن يستخفوا من قريش ويحذروا عيونهم وأرصادهم ، وما وافى للموعد حتى كان بين يدي الرسول سبعون منهم . بينهم نسيية وسيدة أخرى عاهدتهم وعاهدوه أن يسعوه بينهم وأن يحموه حمايتهم لأحدهم حتى يبين حجته ويلبغ رسالته . وراحوا بعهدهم يخفون من قريش ومن الناس أن يعلوه ، وعادت نسيية إلى بلدها سعيدة بإيمانها بخورة بعهدها ، وقد ردت ما يكلفها هذا العهد نفسها على الرمي بالنبل والضرب بالسيف وأعدت لهذا الجهاد ولديها حبيباً وعبد الله .

ودار الزمن وفر الرسول من مكة وهاجر إلى المدينة وتلقاه الانصار بالنشيد والترحيب ، ثم نشبت الحرب بين الرسول وبين المشركين من قريش في يوم بدر ، وشهدا المهاجرون الأولون والانصار السابقون ونسيية منهم تسقى من استسقى وتضمد الجرح لمن جرح ، وتشهد غلبة الحق لأول يوم انتصر فيه . وعظم هذا اليوم على المشركين وهم الأكثرون فأعدوا عدتهم وحشدوا للرسول في «أحد» وشهدته نسيية أيضاً ومعه زوجها وولدها في يمينها السقاء والضياء ، واستعرت الحرب وغلب المسلمون ثم نالهم هزيمة ، فما ارتاعت نسيية إلا لجموع من المشركين تقصد إلى محمد تريد أن تحيط به وتكاد أن تبلغه والمسلمون عنه في ناحية مثقلون بالهزيمة ، فألقت السقاء والضياء وسددت بالسهم . ورمت عن الرسول بالنبل ، حتى التحم به المشركون فشرعت السيف وجالدت القوم حتى جرحت وخارت وارتمت على الأرض مصروعة . وثبت الرسول وهزم عنه المشركون وانجلي من الغمرة بما انجلي وتسالوا بنسيية فإذا هي ملقاة يفور دما من جرح غار بكتفها . ضمدوا الجرح وسقوها الماء فما تنهت حتى سألت : وأين الرسول ؟ وما صنع المشركون معه ؟ إنه لناج وأنه منك لقريب . وجرحك الغائر ودمك السائل وقوتك الموهنة وولداك الناشتان وبعلك الشيخ - كل أولئك منك دون محمد ؟ أجل دون محمد ودون رسالة محمد ، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا ، ولها نحيا ، وفي سيياها نموت . ويرث نسيية ونسيت الفخر إلا بهذا اليوم ، وبالأثر الباقي من ذلك الجرح . (روى ابن هشام عن أم سعد قالت : دخلت على نسيية أم عمارة فقلت لها : يا خالة أخبريني : فقالت : خرجت يوم أحد ومعى وعاء فيه ماء فأتيتنا إلى رسول الله

سيدة من بني الخزرج من أهل يثرب ، ولم يكونوا إذ ذاك سموا أنصاراً ولا كان الرسول هاجر إليهم ، ولكن حديثه كان يملأ الجزيرة ودعوته تشغل العرب وقرآته يثبث بينهم ويثلي ، كما كانت الأشعار تنشد وتروى .

وكان أهل المدينة أشد عناية بهذه الدعوة وأحنى سؤالا عنها ، فهم أصهار قريش وشركاؤهم في التجارة وحفظة طريقهم إلى الشام وبينهم اليهود أهل الكتاب ورواة المأثور وجمع الأخبار وجلست نسيية في مساء إلى زوجها وولدها يتحدثون في أمر محمد وأبناء دعوته وما حدث من قرآنه ، وتلى تال (الر تلك آيات الكتاب الحكيم - أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وآيات أخرى من كتاب محمد . وعجبت نسيية للكافرين أن يتكروا على رجل منهم أوحى إليه أن يهديهم وأن يبشرهم وينذرهم ، وتساءلت بهذا السحر المبين أين يكون ؟ وما هي إلا الدعوة الصالحة والحق الواضح والبيان الجليل . لشد ما ظلم الرسول قومه وبئسما افتروا عليه . واشتاق القوم أن يروا محمداً وأن يستمعوا إلى حديثه ويستزيدوا من قرآنه . وما جاء ميقات الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب إلى مكة في نحو خمسمائة حاج أكثرهم الرجال وقل فيهم النساء ومن بينهم نسيية . وها قد أدرك الركب مكة وتوافى إليها الحجيج من كل فج واستقرت القبائل في منازلها والرسول يسعى إليهم يعرض عليهم دينه ويبين رسالته ويثلو قرآنه بل يعرض نفسه أيضاً ، لقد ضاق به المقام في مكة ونبا . وآذاه أهله في نفسه وفيمن من آمن به ، وبالغوا في الأذى والتنكيل حتى عاد بينهم كالعاني الأسير أو أنكد . وما يغنى الرسول ؟ إنما يريد من العرب قوماً يسعونه حتى يؤدى رسالته ، ويحمونه حتى يبين حجته ، ثم يدعون من آمن لإيمانه ومن كفر لكفره . وما من قبيلة رضيت هذا أو انشرفت له صدرأ إلا جماعة من أهل يثرب واعدتهم الرسول

من مواقف العروبة

للاستاذ محمد سعيد العريان



من ذلك الفتى الشجاع،
يختال في العزم والقوة،
والشباب والفتوة، حاسرا
عن ذراعه، متقدما على
صحابته، قد قرعهم طولا،
وبهرهم تماما وحنا...؟
قال أصحاب محمد: ذلك
قزمان المدنى، ما نعرف
في أصحابه من يفوقه شهامة
ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف،
وينتصر للظلم، ويسرع
إلى الصريح؛ لا تقي به عزيمة.

عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة في فتيانها أغير منه على
حماء، وأبرأ منه لأهله...!

قال محمد: «إنه لمن أهل النار...»

واستمع المسلمون لرأى النبي في الفتى الذي اجتمعوا على
الإعجاب به والتدحج بخلاله، فراجعوه الرأي ولا ناقشوه
العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبي إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون
محمدأ صدق نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية.
إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينه الثاقبين، فيعرف
ما تجيش به نفس كل رجل منهم. وإنهم ليعيشون من هذه المدينة
في جو من الخذر والتربص، بين المناققين من أتباع عبد الله
ابن أبي بن سلول، وبين اليهود من بني قريظة والنضير؛ فإيسئون
الرأى في واحد بينهم إلا حسبوه عينا وريثة من عيون المناققين
واليهود؛ فمن يكون قزمان، بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدري
أحد ممن هو وإلى من ينتسب؟ إنه لرجل يعيش في المدينة كما
يعيش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر
ما يرى منه...

...

وهو في أصحابه، والدولة والريح للسليدين، فلما انهزم المسلمون انحزرت
إلى رسول الله فكنت أبأشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرى
عن القوس حتى خلصت الجراح إلى، وأرت على عاتقها جرحا
أجوف له غور،

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله
وملأت قلبهما إيمانا وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف
رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما مسفرا
ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل
عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلة الجبار
البطاش المنبئ كذبا في قومه بني حنيفة وهم من أكثر العرب
عدداً وأغناهم وأقواماً بأساً. أتدري ما صنع الكذاب بحبيب؟
لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يروي لك، في
الجزء الأول من أسد الغابة في ترجمة حبيب، أن رسول الله
أرسله إلى مسيلة الكذاب الخنفي صاحب البغاة فكان مسيلة
إذا قال تشهد أن محمداً رسول قال نعم، فإذا قال تشهد أنى رسول
الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه
مسيلة عضواً عضواً، اه

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون
لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلة أشد الخصوم
لدا وأقوام كيدا وأكثهم مالا وعدداً، كثر بقومه بني حنيفة
واعتصم بحضونه في البغاة، وصمد إليه خالد بن الوليد
بحبش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله، واستعصى أمر مسيلة
وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستسلمين، رموا بأنفسهم
مسيلة لا يبالون إلا أن يلغوا إليه ويتألوا نفسه، وفي هذا نفر
نسيبة وولدها عبد الله، أمانسية جالدة بالسيف حتى بر ذراعها،
وأما عبد الله فصمد وألح في الهجوم على مسيلة مستقتلا
مستسلحا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلة فانت الفتنة
بعوته وتم أمر بني حنيفة مع ابن الوليد صلحا؛ وعادت نسيبة إلى
بلدها بإسعاد واحد وولد واحد، وهي بما مضى أسعد منها بما بقى. كل
إلى قتاه، وإنما الفوز والمجد أن يكون في سبيل الحق ذهاب ما ذهب منك
ونسى التاريخ نسيبة وأغض العين عن بقية أيامها ورض
أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مشاها. إلا أن
مشاها الجنة، وإن ذكرها في الطيات لخالد.

ابراهيم مصطفى

المدينة؟ وما مقامى وكيف أكون إن ظفر العدو واستباح
الحى ووطئت نعاله تراب الوطن...؟ يا لأحساب قومى،
وبالعزة بلادى... ولكن...! يا للعروبة! أتغفر لى أن أقاتل
فى صفوف محمد وما أنا على دينه؟

وتوزعت الفكرتان لا تسليمانه إلى رأى فيهدأ، ثم لم يلبث
أن خلع الفكرتين جميعاً إلى خاطر هفت له نفسه...

ومضى يحث الخطأ إلى داره سلافة بنت طلحة،، يلتمس
فى الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس. منذ كم
لم يجتمع قزمان وسلافة تسير إليه ويسر إليها؟ إن لها فى نفسه
لمكاناً؟ وإن له فى نفسه لحديثاً يسره أن يلقاها فيحنثها به
وتحدثه؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة، فهأى ذى الفرصة قد
أمكنته ليجلس إليها ساعة فى غفلة العيون... وطرق الباب...
- : من؟ من يدق الباب؟ -

- : قزمان ١٠٠٠،

- : : وى ١٠٠٠ قزمان؟ وما جاء بقزمان الساعة؟

- : : سلافة...

- : : حسبك هناك ١٠٠٠،

- : : أظنين يا سلافة؟

- : : بل أعتقد... قزمان لا يكون هنا وقومه هناك،

- : : ولكنى هنا من أجلك يا سلافة،

- : : وقومك...؟ وأهلك...؟ ودينك...؟

- : : أنت قومى، وأهلى، ودينى ١٠٠٠،

- : : لست منك يا قزمان إن لم تكن من أهلى وقومى ودينى؛

لخير لى أن أفقدك فى الجهاد وأنت أحب إلى ١٠٠٠.

- : : سلافة،

- : : سلافة لقزمان البطل المجاهد ولبست لك ١٠٠٠.

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليه هم ثالث. وسار بين البيوت
مطرق الرأس، تتناوله نظرات الرية والحدس. وسمع عجوزاً
تحدث إلى جارتها: أما سمعت يا عاتكة؟

- : : ماذا؟

- : : حسيل بن جابر، وثابت بن وقش؛ إنهما من تملين:

هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف؟ لقد لحقا

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد، واجتمع
إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة، يطلبون الثأر لقتلى
بدر. وسار جيش الشرك فى ثلاثة آلاف مقاتل، ما منهم إلا
موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولومات دونه؛ وتطأيرت
رمال الصحراء تحت سنابل الخيل وأخفاف الابل، نذيراً بما
سيكون فى غديين الطائفتين؛ وسال الوادى يقذف بالزبد
رجالا على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس نائرة مهتاجة؛
وتجاوبت جنبات البادية بجدهاء الرجال على نواصى الخيل ورنين
الدفوف بين الطعائن؛ حتى أشرف الجيش على (أحد)
فلبثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد...

وخرج محمد وأصحابه سبعة إلى لقاء الجيش عند أحد،
فما تخلف فى المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة.
وما انخرل عنه إلا المتأفقون من أتباع عبد الله بن أبى. وتخلف
قزمان فيمن تخلف بالمدينة ١٠٠٠

وغدا قزمان يمشى فى طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله. أين
رفاقه وصحابته؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدو فما تخلف منهم
غيره، فقيم بقاءه ولا بقاء لمثله؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن
بما يؤمن به صحابته؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذى يدينون الله
عليه، وزياداً عن الحق الذى يدعون له، بلى، وحفاظاً على
الوطن العزيز أن تظاً ثراه نعال الغرباء...

وتحدثت قزمان إلى نفسه هنية: ما مقامى هنا وأصحابى
هناك؟ وى! وماذا تكون مقاتلهم عنى وليس فى المدينة غيرى
وغير هؤلاء؟

هؤلاء كل ما هنا لك: شيخ هم يمشى على عصوين، وأعمى
ضرب يترك على عكازته، وطفل لدن يركب عصاه يستبق مع
لداته، ويجوز عرقها الأيام جالة وراء الباب تنتظر ما يأتى به
الركبان من أخبار الحرب، وشابة مخضوبة البنان متوارية فى
الحجاب وأقنها إلى الطريق تتسمع نأ عن زوجها الذى خرج للجهاد؛
وهذا الفتى وحده ١٠٠٠

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه: ... وماذا يكون من أمرى
حين يعود أصحابى أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون؟ بل ماذا
يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوس والخزرج أن تدافعا عن

اليوم برسول الله يرجوان المثوبة في الجهاد أو الشهادة، وما عليهما والله إن بقيا في الآطام مع النساء والصبيان، وما منهما إلا له إخوة أو ولد في الحرب يكفون عنه ١٠٠.

قالت صاحبتها: «بلى، قد علمت يا أختاه! فهل جاءك أن عمرو بن الجوح لم يمنع من الحرب أنه يمشي برجل واحدة، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقف مع رسول الله؟» وسمع الرجل ما تحدث به المرأتان، فكأنما كانتا ترجانه بالخير فما يستطيع أن يتناسك مما ينال عليه. واستمر يمشي وكأنما تستعر الحرب في رأسه لا في الميدان البعيد ومرت به نسيبة بنت كعب، تحمل سقاء فيه ماء، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداه؛ لقد كانت في طريقها إلى أحد، لتقوم بما تقدر عليه في صفوف المجاهدين ١٠٠.

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه: «وبلى! ما أنا هنا والحرب هناك؟ وما يكون من أمرى غدا على الحاليين: في النصر والهزيمة؟ أفراراً من الموت؟ أنكوصاً عن الواجب؟ أكفرأ بالوطن والأهل والعشيرة؟ ألا إنه يومك يا قزمان، فليجاهدوا هم في سيلهم، وليكن جهادى معهم لأجل الوطن ١٠٠.

وترامت السهام، وبرقت الأسهم، والتقت السيوف، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقزمان غير بعيد؛ لقد أدرك الجيش ولما بدأ النضال، فما فاته أن يشهد المعركة من البداية

من ذلك الفتى الشعاع، يختال في العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسراً عن ذراعه والسيوف في يده، يحترق الرأس، ويقطع الأوداج، ويلقى الرعب في قلوب الأعداء؟ إنه قزمان نفسه؛ لقد قاتل في ذلك اليوم قتالا شديداً، وأبلى بلاء حسناً، فما وضع السيف حتى أثخنه الجراحة.

والنف المسلمون حول قزمان يخفون عنه ما ناله من أذى القتال، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه، فهم يقولون: «والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشرا! قال: «بماذا أبشرا؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت... ونظر المسلمون بغضهم إلى بعض ثم انفضوا...

«إنه لمن أهل النار! هكذا كان يقول عنه محمد. صدق رسول الله! ونظر قزمان إلى نفسه، فاذا هو يتلاشى نفساً في نفس، وذاكر صنيعة في ذلك اليوم، فعادت إليه الفكرتان الأولى وتطرعان في نفسه، لا تسليانه إلى رأى فيهدأ. أى الخطيتين كانت أهدى سبيلاً: أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شراً تمزق، أو يقاتل في صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم؟

أما إنه لا سبيل إلى مافات. لقد أدى واجبه لوطنه، ولكن... ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه... ونزرت به نازية، فلم يجد لنفسه خلاصاً من عذاب الفكر إلا بالموت، فأنكأ على سيفه فأزهق نفسه...!

يا الله! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هدته سبيل الوطنية، ولكن قلبه ظل في ظلمات من الضلال والشك. لو عرف ذلك الدين الذي جاهد له يومه الأخير، لأشرق له الدنيا كلها، وانبتق الصبح في قلبه، ولما مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود!

ليت عرف! ولكن، حسب أنه كان مثالا في الوطنية. ليت كثيراً يعرفونه...!

(شبرا) محمد سعيد العربي

آلام فتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها: محمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

ومنها ١٥ قرشا

بين حراء... وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التي بين جنوبهم، فهم في يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتداداً منه وظلاً من دعوته... وقد امتلأ قلبه بالأمل الوائق بأن الله متمّ نوره ومعلّ كلمته... وقد شبع عقله من جوع إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحي، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمق، ففيه لبني الإنسان الهدى والحلى والطهر.

وقد تعوّض نظره من رهوس الجبال التي حول حراء، برهوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثاً وعشرين حجة في كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماء أوصمت... حتى ضُقلوا وصاروا أناساً كالنجوم المصاييح.

بين الكلمة الأولى الأمر المغيرة المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علق، وقصة القلم ذلك الشيء العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات بين البنّان واللسان: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وبين الكلمة الأخيرة المخبرة المهدئة للممتة بكال الدين واختيار الطريق: «اليوم أكملت لكم دينكم...» دار الفلك ثلاثاً وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذي كان عقله مرآة لما يدور في السماء حول صلاح عمّار الأرض. وما هو ذا يقف معلناً «أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن حركة بدم واستهلال وولادة ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام والوالدات...

ولأنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته في اليوم الأول. ومنذا الذي يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبياً؟

إذاً هو الأب الثاني للبشر وُلدت منه الإنسانية ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد. ألم يستدر الزمان معه كما بدى مع آدم؟ ألم تبلغ البشرية به رشدًا وتترك طفولتها وسفها ووقوفها عند المجسمات من الأرباب والمعجزات؟ ألم

وقف الرجل الذي تلخص فيه مجد الإنسان وتحقق به وشاع منه على عرفات في حجة الوداع، وقد احتشدت حوله في ذلك الرحب الصامت الرهيب الذي فيه أول بيت وضع للناس، الأزمان والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكام وأعضاء الإنسانية وحامل المشاغل على طرقها، وأفواج الخلائق من عالم الدر والبرزخ، وأجساد أولئك المتجردين من لبس المحيط والمحيط من صحابته المخبيين... ومن فرق الحشد الخفي والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقي الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزلة من حول العرش: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...» يعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل المجموع المحشودة: هل بلغت؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التي كان يأوي إليها في طلب الهدى ثم في التخلي بالدعوة ثم في الجهاد لها - الجواب الإجماعي في اقرار وشكران

وما بدى من أن الكلمة الأولى: «اقرأ باسم ربك...» التي طالعه بها الوحي في حراء، كانت تتردد على سمعه في تلك البرهة الخالدة، فتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده في الأرض التي كان كل قدس فيها رجساً، وكل بركة فجرة، وكل امرئ آثماً في عقيدة القلب، خرقاً في رأى العقل، ضارباً في معاملة الخلق، طفلاً في طقوس العبادة... أيام أن كان يتخفى بالغار في حيرة وانفراد ورهبة وضمت وشك وفراغ، وأعصاب مرهفة، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة، وعقل عظيم، ولكنه أمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظراً لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسي والأحجار والأخشاب، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب في قهر وصمت وطواعية ووجوم... وهو ذا الآن على عرفات في استعلان ومعرفة وحشد وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء في العقل من عالم الشهادة، وفي الروح من عالم الغيب، وفي البدن

يسلمها مفاتيح الطبيعة ويهبها إلى الفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وكيف بدأ الخلق؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من جبل الوريد؟ ألم ينج الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحاني الفوارق بين بنيه من الجسد والروح؟ ألم ينهها أن تقفو ما ليس لها علم وأن تتبع الظن الذي لا يقنى من الحق شيئاً؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها؟ لأن ربها واحد وأباها واحد، ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيوانها في البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهي أمامه في عرفات مثلة في الحبشي بلال الأسود والرومي صبيب الأصفر والفارسي سلمان الأبيض والعربي في العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً ببلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك. ولو سكتوا لنطق الحصى الذي كان يرحم به في بدء الدعوة وحطام الأصنام التي هشمها يمينه في يوم الفتح..

أيها الرسول المتقذكلة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر في فجر عام جديد لتلحق بإقرار صاحبك في فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك.

لقد بلغت كتاب الدنيا ورسالة كل شيء، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شيء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذي المجد، وحب الحق والخير والجمال..

ولا يزال صوتك يدوي في الآفاق محترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضادت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم.

الحقوق والواجبات التي خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها في الخطبة الجامعة على الحشد الذي لم تلقه بعد كما توقعت.. صارت أمجدية الإنسانية ومزموراً أمانتها، حملها العباد الذين كلفتهم حملها من شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به، حملوها أنهاراً تجري من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان

والسهول المخصبة بالنبات، الكزرة المجذبة من فضيلة الإنسان. فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام

وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رموس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمتها وحطمتها بيرهاتك وفصلك.. فالثورة الانجليزية لإقرار الشورى، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الإنسان.. إنما هما صدى يحكي في خفوت وضآلة ويطء وتخلف، ثورتك الكبرى على الأرباب الزانقين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التي تافك الإنسانية وديعة الله في الأرض وتصرفها عن وجه الله ذي الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ما بينهما وبينهما! إنها ثورة رجل يهتف في بوق النبوة له قلب فيه مدد من هدى الوحي، وسلام من رحمة الروح، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحياناً بمضغ الطيب لإذهاب الألم لا لأحداثه. وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عيياء ضارية، قامت بها أيدي أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب.. تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤثر. ومن عماها أكلت الخطب والأيدي التي كانت تقدمه، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لا تزال تنفض منها وتثير حول ذكرائها. سخطا واشمئزازاً، والتاريخ ميزان.

(بنياد)

عبد الحليم فخر

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

محمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة الرسالة،

التمن ١٢ قرشاً

الخلود

للدكتور إبراهيم يومى مذكور



أمل حلو زاد التعلق
به فلبس ثوب الحقيقة ،
وخيال عذب طاب لنا أن
نسبح وراءه فاكتمس بكسائه
الواقع ، وغيب شغفنا
بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه
في مظهر الحاضر ، وسلوة
تدلى بها عن الحرمان
أو عثور الجدوس الطالع ،
وثار من الموت ذلك
الحصم العنيد الذى يحمل
الشباب على الرحيل في

عنقوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه .
فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس
وشقاء وآلام ووبلات ، وكثيرا ما نستطيع شدة اليوم في سيل
فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله
عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة
أول ملهم بتجدها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول
باستئنافها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد
بصور شتى وأشكال متباينة هي في جملتها صدى لرغباته ونزعاته
وميله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها .
فتصور الممجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل
وسفك الدماء الخلود على أنه عودة للانسان فى شكل مارد
جبار شيطان رجيم يثار لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض
المتحضرين ضربا من اليقظة يرقل فيه المرء فى حبل السعادة
وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينة والزخرف
ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورتها فى
صورة أسمى ، وكسته بكسائه أنخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة

متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع
العامة والدعاه وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل ففسير وراءه سيرا
أسمى ، وعذوبة الخيال فتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ،
وحرمة الدين فتؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب
ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه
وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا
من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفة ، ويبحث
ويحلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما
لا يخضع لمبادئ القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى
موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يفهم سره وغايته ويرهن
على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود
كلتها بالإيجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف
لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر
والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة
الحاضرة وقوانينها لم يفهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير
بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يدتروا فيه
ويعيدوا ويعترضوا ويحيوا ، فهم من فلسفتهم الدينية فى صميمها
ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم
أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحانيين والمساكين بين
مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من
هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع
الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى
هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان
اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية
منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع ، ثم لم يقنع بهذا
فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هي « فيدون » . وفيها يجرى
ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله
من الاتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى متبدع
يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم
بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المتهم البريء الذى

القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين
وسواء أوفق أفلاطون في برهنته أم لا فإنه قد سن سنة
استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا جيب إلى الخلف السير
فيه ، فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول
محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون
الوسطى تأثرا به في هذا الصدد ابن سينا الذي قد يردد بعض
أدلة أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توفر
لديه ما لم يتوفر لدى أستاذه فقد وقف على الوحي الإلهي الذي
صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة
القرآن الصريحة في الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما
عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفي خيال
حلوه هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط
الروح من عالمها العلوي ومقامها في هذا العالم الفاني ثم عودتها
إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود
هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر - وهي التي سفرت ولم تتبرقع -
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات توجع

ان كان أهبطها الإله الحكمة طويت عن الفذالليب الأروع
فهبطها لاشك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية في العالمين غرقها لم يرفع
ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأتي
ألا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبت اثباتاً فلسفياً ،
فيقرر أن النفس وهي جوهر بسيط لا يمكن أن تشتعل على -
مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن
أن يكون فيها أي استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى
الجسم أم قى ، فإن صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ،
بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد في شيء
ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر في شخص المالك ما قد
يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هي المتصرقة في البدن
والمديرة لأمره ، ولن ينقلب الأمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً .

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحي الذي يسعى إلى
الموت في خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه
مختار ، يتحدث عن خلود الروح في آخر يوم من أيام حياته
فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط
سنة معهودة في حوارهِ من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد
إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف واقتان في وسائل
الاثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث :
برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن
نلاحظ أولاً أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن
الأكبر يتولد عن الأصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك
تبادل دائم بين الأضداد . ومادام الموت والحياة ضدّين فهما
متعاقبان . وقديما قالت الأرفيه والفيثاغورية بالتناسخ وتداول
الأجيال البشرية ؛ وبهذا يخرج الحي من الميت كما يخرج الميت
من الحي ، وتبقى النفس رحالة منتقلة من جسد إلى جسد دون
أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونلم ثانياً مع أفلاطون أن النفس
تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ؛ والشيء وحده هو
الذي يدرك الشيء . فلا بد أن يكون للنفس ما للثل من ثبوت
وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومناقية للموت بطبيعتها ،
فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يجتمع في
ماهية واحدة ضدان ؛ فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ،
وأنى لاتصال بعد كل هذا هل وفق أفلاطون في برهنته ؟ إذا
اختبرنا أدلته لم نتردد في أن نجيب بالسلب ، فإن فكرة صدور
الصد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح
بطلانها . ولا نظن أن أحداً يسلّم اليوم مع الأغريق أن الإنسان
لا يدرك إلا ما يشابهه . فإننا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الإنسانية
عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب
النفسي القديم الذي كان يعد النفس في آن واحد مصدر الحياة
والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان
على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فإنه
يصرح على لسان سمباسي أن العلم بحقيقة الخلود يمتنع أو جد
عسير في هذه الحياة . وجدير يبحث كهذا أن يوضع في قالب

أو ضروري ، ولكن لاسيلا لنا مجال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعي . وأن لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين وليس في وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة . وإذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره . وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادي أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة . وأن بحثهم يرفض أي وجود بعد هذا الوجود . فأن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه ، وللبحث العلي دائرة لا يتعداها ؛ ومن البعث أن تتكلم باسم العلم في دائرة تسو على العلم ، وأن تفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود . ولن يضير الخلود في شيء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع . ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض في بيانه فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم . هو أمر خارج عن عالم الفناء وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضحا ما يتناهى وطبيعته ألا أن عرج الى سماء الخالدين

ابراهيم مذكور

لِسَانُ الْعَرَبِ

لابن منظور الافريقى المصرى

مرتبا ترتيبا حديثا ومصححا تصحيحا عليا على أصوله الخمسة
وهى الصحاح للجوهري وحواشيه والنهاية لابن الاثير
والجوهرة لابن دريد والحكم لابن سيده والتهذيب للزهرى

ارسل ٢٥ قرشا صاغا باسم الاستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى مدير
دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف - بعطفة الشوشترى خلف بلائشى
بالموسكى - بصلك الجزء الاول منه وتعد مشتركا في الجزء الثانى

ملاحظة : عن الجزء قبل الطبع ١٠ قروش و ١٥ قرشا بدم ، وأجرة
البريد لمن فى القطر المصرى قرشان صاغا وضعه لمن فى الخارج .

يد أن حظ ابن سينا فى هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم الى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) الى هذا التهاافت فى البرهنة والقصور فى الاثبات . فرفض فى كتابه ، نقد العقل المجرد ، الأدلة التى تساق لاثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يتهدى الى شيء يقينى فى دائرة الأمور المغيبة ؛ وفى هذا ما يسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان فى جانبه ، وما يهبى للوحى والألهام الفرصة أن يكملها نقص البحث والنظر . خصوصا والتبعة الأخلاقية لقيامها بدور الثواب والعقاب والحساب والمستوليه ، والواجب فى حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرتة . لهذا نرى (كانت) يعود فى كتابه ، نقد العقل العملى ، فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمى الذى ننشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما فى حياتنا الحاضرة القصيرة .

فإن شئنا أن يكون للواجب الذى تنادى به قيمته والأخلاق التى ندعو اليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما العدالة تأبى كل الآباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعداء ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأني بك أنت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكادى فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقى ليس أكثر إقناعا من سابقه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالعرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادئ أخرى .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار وأن تنزج فى هذا المأزق الحرج . فى مقدورنا أن نقول إنه يمكن أو محتمل

نتاج العبقرية المنسية

في الحسن بن الهيثم

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يفكر الدكتور النابغ الأستاذ مشرفة عميد كلية العلوم
للجامعة المصرية في إقامة مهرجان لأحياء ذكرى ابن الهيثم في
العام المقبل بمناسبة مرور ٩٠٠ عام على وفاته

ولا عجب إذا فكر العميد في هذا، فابن الهيثم من عباقرة العرب
الذين نبغوا في الطبيعة والرياضيات والهندسة وقدموا جليل الخدمات
لها، ولولاه ما كان علم البصريات (الضوء) على ما هو عليه الآن
ويؤلمني أن أقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوربية
لرأيت كيف يكون التقدير وكيف يذاع اسمه وتنتشر سيرته على
الناس وتدخل في برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاماً
وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته

أليس في عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عن ابن الهيثم
أجحاف وعيب فاضح؟ أليس إهمالاً منا أن نعرف عن بطليموس
وكيلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم؟

ألا يدل هذا على نقص معيب في برامجنا الثقافية القومية؟
ولا يظن القارئ أن ابن الهيثم وحيد في هذا الاجحاف
والإهمال فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم
بأحسن من حظه، فهذه ذى حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة
بغيوم الغموض وعدم الاعتراف وهي في أشد الحاجة إلى أناس
يتعهدون بإزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس.

ولا شك أن في إظهارها انصافاً لهم وخدمة للحقيقة، كما أن في
عرضها على الناشئة من العوامل التي توجد فيهم الاعتزاز بالقومية
والاعتقاد بالقابلية. وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد
في رفع مستوى المدنية. ولا يخفى ما في هذا كله من قوى
تدفع الأمة إلى حيث المجد والسودد، قوى تمهد السبل لتقوم
(الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الإنسانية قسماً في بناء
الحضارة وإعلاء شأنها

والآن نرجع إلى ابن الهيثم فنقول إنه ظهر في أوائل القرن

الخامس للهجرة في البصرة ونزل مصر واستوطنها إلى أن مات
سنة ١٠٣٨ م. وقد عرف الأقدمون فضله وقدروا نبوغه وعلمه
فقال ابن أبي أصيبعة: «وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء
متفتناً في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي
ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر
الزهد...» وقال ابن القفطي: «إنه صاحب تصانيف وتأليف
في الهندسة، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفتناً فيه، فيما بغوامضه.

ومعانيه، مشاركاً في علوم الأوائل أخذ عنه الناس واستفادوا...»
وكذلك عرف الأفرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض
الانصاف واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته فوجد دائرة المعارف
البريطانية تقول: «إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد
بطليموس في علم البصريات...»

وجاء في كتاب تراث الإسلام: «إن علم البصريات وصل
إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم، واعترف العالم
الفرنسي لوتيرفاردو بأن كبلر أخذ معلوماته في الضوء ولا سيما
ما يتعلق بانكسار الضوء في الجو من كتب ابن الهيثم. ويقول
سارطون: «إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم
الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء
البصريات القليلين المشهورين في العالم كله...»

ولعل الأستاذ (مصطفى نظيف) أول عربي في هذا العصر
أنصف ابن الهيثم بعض الانصاف ووقف على التراث الضخم
الذي خلفه في الطبيعة ولا سيما فيما يتعلق ببحوث الضوء. قال
الأستاذ نظيف في مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات)
ما يلي: «والذي جعلني أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة
الأخرى أن علماً ازدهر في عصر التمدن الإسلامي وكان من أعظم
مؤسسيه شأناً ورفعة وأثرأ الحسن بن الهيثم الذي كانت مؤلفاته

ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس
عشر...» فلقد بقيت كتبه منهلاً عاماً نهل منه أكثر علماء القرون
الوسطى كروجر باكن وكبلر وليوناردو فنسي وبوتيلو وغيرهم.
وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة في الضوء هي التي جعلت
ما كسي وما يرهوف يقول صراحة: «إن عظمة الابتكار الإسلامي
تجلى في علم البصريات...»

ومن أهم كتب ابن الهيثم وأكثرها استيفاء لبحوث الضوء
كتاب المناظر، ويتبين من هذا الكتاب أن ابن الهيثم هو

ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة ، وحينئذ يصل النور الى عين الراى كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما . وهو من الذين لم يأخذوا برأى اقليدس واتباع بطليموس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئى ، بل قال بان شعاع النور يأتى من الجسم المرئى الى العين . وبحث فى كتابه أيضاً فى قوى تكبير العدسات ؛ ويرى كثيرون ان ما كتبه فى هذا الصدد قد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى اصلاح عيوب العين . وكتب فى الزيف الكرى وفى تحليل الشفق وقال انه يظهر ويختفى عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق ، وأن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما فى الهواء من ذرات عاتمة وترتد اليها فترى بها ما انعكست عنه . وبين ان الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الأفق وهمية ؛ وقد علل هذا الوهم تعليلاً عالياً صحيحاً لم ينسب اليه ، بناء على أن الانسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين : الاول الزاوية التى يبصر منها أو زاوية الرؤية ، والثانى قرب الجسم أو بعده من العين . وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام . وقد اعتمد فى بحوثه هذه على كتب التشريح التى كانت فى زمانه ، ووضع أسماء لبعض أقسام العين وأخذها عنه الأفرنج وترجموها الى لغاتهم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن ابن الهيثم كتب فى تشريح العين وفى وظيفة كل قسم منها . وقد بين كيف تنظر الى الأشياء بالعينين فى آن واحد ، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى الى العينين ، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية فى محلين متماثلين . ولعل هذا الراى هو أساس آلة الاستريسكوب

وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التى تنشأ من وقوع صورة المرئى على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التى تتكون بها صورة جسم مرئى تمر أشعته الضوئية من ثقب فى محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذى دخل منه النور ، والسطح يقابله فى العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء ، فاذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل الى المخ ، ومن ذلك تتكون صورة المرئى فى الدماغ . وله أيضاً معرفة بخصائص العدسات اللامة والمفرقة والمرابا فى تكوين الصور ؛ وكتب فى المرايا المحرقة وأجاد فى ذلك إجابة دلت على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التى تسقط

الذى أضاف قانون الانعكاس القائل بأن زاويتى السقوط والانعكاس واقعتان فى مستوى واحد . وقد أدخل فيه أيضاً مسائل مهمة عرفت بمسائل ابن الهيثم ، اشتهر بعضها كثيراً كالمسألة الآتية : إذا علم موضع نقطة مضبوطة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها . ويعود سبب شهرة هذه المسألة الى صعوبات هندسية تظهر فى أثناء الحل إذ ينشأ عن ذلك معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وأجرى تجارب عديدة تبين له منها أن الضوء ينتشر فى خطوط مستقيمة أثناء سيره فى الهواء أو فى وسط آخر ، وأن الضوء إذا سار من وسط الى وسط آخر انعطف عن استقامته . وقاس كلا من زاويتي السقوط والانكسار وبين أن بطليموس كان مخطئاً فى نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار ثابتة ، وقال بأن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير ولكنه على الرغم من ذلك لم يوفق الى إيجاد القانون الحقيقى للانكسار . واستعمل آلة لإيجاد العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار وهى تشبه الآلة التى نستعملها الآن . وعمل جداول أدق من جداول بطليموس فى معاملات الانكسار لبعض المواد . وأتى على تجارب عديدة أثبت فيها انعطاف الأشعة عند سيرها من وسط شفاف الى وسط آخر شفاف . وقد شرح فى بعض كتبه الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء الى ذلك . ومن هذه الظواهر التى ذكرها وشرحها الانكسار الفلكى أى أن الضوء الذى يصل إلينا من الاجرام السماوية يعانى انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ، ومن ذلك ينتج انحراف فى الأشعة . ولا يخفى ما لهذا من شأن فى الرصد . فثلاً يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلاً ، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما فى الحقيقة يكونان تحت . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس أو قرص القمر لا يظهر بالقرب من الأفق مستديراً بل بيضوياً . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تحليلها تعليلاً صحيحاً واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية . ومن الحوادث الجوية التى عللها الهالة التى ترى حول الشمس أو القمر . وقال بأن ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون فى الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذى يمر فيها

والآن نقف عند هذا الحد آمليين أن تخرج فكرة الدكتور مشرفة إلى حيز الوجود فيكون بذلك قد أنصف عالماً عالمياً من أفاض علماء الطبيعة والرياضة . ويكون أيضاً قد أدى واجباً ثقافياً وطنياً هو من أقدس الواجبات ، وأضاف مآثرة إلى مآثره العديدة في خدمة الثقافة العربية وبعثها .

قمرى حافظ طوفان

(بالسر)

كتابان جديدان

المؤرخ ج. ج. ج.

في

المحادثات

١ فرنسي ونجسليزي وعربي ٢ فرنسي وعربي مع تصوير لفظي

تأليف الأستاذ

محمد محمد صالح

مدير المراجعة العلمية بالجامعة

درئيس القسم الأوروبي بالجامعة

كلاهما دروس عملية لا تحتاج إلى مرشد ، الأول يرشدك عن طريق المقارنة ، والثاني يتغلب بك على عقبات النطق ، بكل منهما ٥٨ موضوعاً وافياً :

مفردات ، محادثات ، رسائل

لبس في غنى عنهما أحدهما : كل تليد في المدارس الثانوية ، وكل راغب في اللغات الأجنبية ، بل كل يحب لزيارة البلاد الغربية . فانتزهما صديقان لك من اليوم

والكتابان مطبوعان بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعاً متقناً ، على ورق جيد ، وتجلد أبيض

يباعان بجميع المكتبات وتحت كل منهما ٦ قروش مجلداً وبطلان بالجملة من مكتبة مصر ، شارع الفجالة ، بمصر أرسل ٦٨ ملياً طوابع بصلك أحدهما بالبريد داخل القطر

على السطح موازية للبحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان .

ويظن البعض أن ابن الهيثم لم يشتغل في الرياضيات ، مع أن الواقع خلاف ذلك فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه ونضجه العلمي ، فلقد بحث في المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط . ويقال إن الخيام رجع إليها واستعملها . وقد حل كثيراً من المعادلات بطريقة تقاطع المنحنيين وتمكن من إيجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات أو محور الصادات . وتنسب إليه بعض رسائل في المربعات السحرية واستعمل نظرية افتاء الفرق ووضع أربعة قوانين لإيجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوى ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ وله بحوث في الهندسة تدل على تعمقه في علوم زمانه . ولقد طبق الهندسة على المنطق والف كتاباً يقول فيه كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أقليدس وابولونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها براهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي أقليدس وابولونيوس . وله مؤلفات أخرى قيمة في الرياضيات والطبيعة منها كتاب شرح أصول أقليدس في الهندسة والعدد وتلخيصه كتاب الجامع في أصول الحساب ، وكتاب في تحليل المسائل الهندسية ، وكتاب في تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهنات ، وكتاب في حساب المعاملات وكتب أخرى في بحوث رياضية عالية . وله غير كتبه في الرياضيات والطبيعة كتب في الالهيات والطب يربو عددها على الحسين .

واشتغل ابن الهيثم في الفلك ويعترف بذلك سيدليو فيقول : « وخلف ابن يونس في الاهتمام بعلم الفلك جمع منهم حسن بن الهيثم الذي ألف أكثر من ثمانين كتاباً وبمجموعة في الأرصاد وتفسير المجسطى ... »

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية يتجلى للقارئ منها الخدمات الجليلة التي قدمها لهذه العلوم والمآثر التي أورثها إلى الأجيال والتراث القيم الذي خلفه للعلماء والباحثين مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة ، والذي له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات ، والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكن الإنسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكما ربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الاجرام السماوية من مدهشات ومجرات .

تصحيح نص عربي قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام
للأستاذ عبد القادر المغربي

جاء في كتاب
(طبقات الشعراء)
لأبي عبد الله بن سلام
الجمعي المتوفى سنة
(٥٢٢ هـ) نص يتعلق
بأخبار (عقيل بن
عُلفَة) فيه اضطراب
وفيه تلفيق أحبنا
تحقيقه في هذا المقال.
والنص — عدا
ذلك يتضمن قائمة
تتعلق بالاجتماع
الإسلامي وتصف



لنا ناحية من نواحي عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام
وعقيل بن عُلفَة هذا من أتباع (مدرسة الخضرمين) أو (مدرسة
الخضرمة) إن سمح لنا بهذا التعبير . وهي المدرسة التي تتلذذ
فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ؛
فكانت معرفتهم بآدابه سطحية . كانوا يراعون تلك الآداب
حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلي فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه في
جاهليتهم حيناً آخر . كانوا يتعزّون بعزاء الجاهلية . ويحاربون
القبائل المعادية لهم عصبيةً لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله
وشرائع الإسلام . وما كانوا يتورعون من شرب الخمر في بعض
الأحيان ولا من الخين إلى نزعاتهم الجاهلية ؛ ومنها الفخر والمنافرة
والمهاجاة والإفراط في الغيرة . كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها
بشاشة الإسلام وسجاحته ولين جانبه .

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن عُلفَة المزي)

و (عُلفَة) على وزان (قُبْرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح .
وهو ثمر أشبه باللوباء .

كان عقيل أعرابياً جليفاً مفرط الغيرة ، له نزوع شديد إلى
عادات الجاهلية ، نفوراً بها ، داعياً إليها

هنا يوماً أحد قتيان قريش بزواجه قاتلاً له : « بالرفاء والبنين
والطائر المحمود ، فقيل له : يُكره أن يقال هذا في الإسلام
وإنما هو من تهاني الجاهلية . فأجاب عقيل : يا ابن أخي ! ما تريد
إلى ما أحدث ؟ إن هذا قول أخوالك في الجاهلية إلى اليوم
لا يعرفون غيره .

وقد رويت كلمته هذه للزهرى فقال إن ابن عُلفَة كان من
أجهل الناس ،

وعدا بنو جعفر على مولى لابن عُلفَة ، فعَدَا هو على مولى لهم
ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأُتشد :

فلا تحسبوا الإسلام غيرَ بعدكم زماح موالكم فذاك بكم جهل
ومن أخبار جفاته مارواه ابن أبي الحديد في شرح النهج .
(ج ١ ص ٤٤٠) نقلاً عن ابن قتيبة . قال :

خطب هشام بن اسماعيل المخزومي إلى المدينة (وهو خال
الخليفة هشام بن عبد الملك الذي قال فيه الفرزدق بيته المشهور :
وما مثله في الناس إلا ملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلفَة ابنته فردّه وقال :

رددتُ صحيفة القرشي لما أبت أعراقه إلا أحرارا

يريد أن فيه شيباً للعجم وعرقاً منهم فلم يزوجه لذلك .
وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمي الأصل .
والعرب تسمى الأعجمي أحر ، وتجمعه على أحمر . لأن الشقرة
تغلب على جنسه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : بُعثت إلى
الأسود والأحمر ، يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل : والله ما نراك تقرأ شيئاً
من القرآن . قال : بلى والله إني لأقرأ . قالوا : فأقرأ . إنا أرسلنا
نوحاً إلى قومه ، فقرأ : إنا خَرَطْنَا نوحاً إلى قومه ، قالوا :
أخطأتَ والله . قال : فكيف أقول ؟ قالوا : تقول : إنا أرسلنا
نوحاً ، لا . خَرَطْنَا نوحاً ، فقال : أشهد أنكم تعلمون أن

- « أرسلنا، وه خَرَطْنَا، سواء ثم أنشد
 'خذنا صدر هرثى أرقفاها فأنما
 كلا جانبي هرثى لمن طريق
 وهذا البيت يُتمثل به حين التسوية بين أمرين . (وهرثى)
 كمسكرى ثنية قرب الجحفة في طريق مكة يرى منها البحر ولها
 طريقان طريق عبر عنه الشاعر بصدر هرثى وطريق عبر عنه
 بقفا هرثى، وضمير (لمن) يرجع إلى النياق . والخطاب في
 (خذا) يرجع إلى رفيق سفره فهو يقول لها : اسلكا إلى
 هرثى أى الطريقين شئتما : جهة صدرها أو جهة قفاها فأنما
 واصلان إليها .
- وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامى الشامى (كل
 الدروب على الطاحون) أى تودى إليها . ومعنى (خرطنا) الذى
 قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) مذكوره القاموس في قوله (خرط
 عبده على الناس إذا أذن له فى أذام) .
- قال التاج (شبه العبد بالدابة التى يُفسح رسنها وترسل مهملة
 تفعل ماتشاه) فالخرط أصله فى الدابة ثم نقل إلى العبد ، ونقله
 عقيل إلى نوح عليه السلام ، وهذا من عنجهيته وتعبته فى جاهليته
 ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته : من ذلك قوله يرى
 ابنه علفة :
- لتمش المتايا حيث شئت فأنها مُحَلَّة بعد الفتى ابن عقيل
 فنى كان مولاه يحل بنجوة فحل الموالى بعده بسيل
 يقول : إن خلفاء علفة أو جيرانه كانوا فى حياته ينزلون
 فى مرتفع من الأرض حيث هم مكرمون أو حيث تضى نيرانهم
 للبدلين بما يجود به عليهم علفة من القرى ، أما اليوم وقد مات
 علفة فنزلهم أصبح فى قوارع الطرق حيث يمتنون أو حيث
 يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السيل . ونسب إليه
 بعضهم البيت المشهور :
- أعله الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
 وإنه قاله فى ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات
 لغيره . فلعله استشهد به كما استشهد به على بن أبى طالب رضى الله
 عنه فنسب إليه أيضاً .
- أما النص الذى روى من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق
- من جهة ، وعبرة اجتماعية اسلامية من جهة ثانية — فهو ما فى
 كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة ٢١٤) ونصه :
 « حدثني أبو عبيدة أن يزيد بن عبد الملك خطب إلى عقيل
 ابن علفة ابنته وقال : زوجنى فلست بواجد فى قومي مثلى .
 قال عقيل : بلى والله لأجدن فى قومك مثلك وما أنت بواجد
 فى قومي مثلى . فحبسه يزيد فضرب عقيل كنف ابنه جثامة وقال
 زوجه يابنى فأنت أحق باللائمة ، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل ،
 فلما أهداها تمثل جثامة فقال :
 أيعذر لاهينا ويلحين فى الصبي وهل هن والفتيان إلا شقائق
 فرماه عقيل بسهم وقال : أتتمثل بهذا عند بناتى ؟ فخرج
 جثامة مراغماً لآليه (أى مفارقاً له على رغم منه وكرهه) فأتى
 يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل إلى يزيد : إنه قد أتاك أعق
 خلق الله . وكان يزيد قد أعطاه وجباه . فأخذ ذلك منه وحبسه ،
 انتهى نص ابن سلام .
- لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ —
 لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر : أيعذر
 لاهينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة . فلم يبق إلا أن الخبر
 مضطرب يحتاج إلى تصحيح . أو نقول هو ملفق يحتاج إلى
 تقويم وتوضيح .
- والتلفيق أصله فى الثوب : يعمد إلى ما يلى ورث من وسطه
 ثم يضم لفقاه (أى طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان .
 فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهى لفقه الأول عند
 قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق والفق الذى
 بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ
 يمكننا العثور عليه فى معجم البلدان طبعة أوربا (ج ٤ ص ٦٦٧)
 عند الكلام على دير سعد . وهذا نص ما فى المعجم بعد
 حذف السند :
- « خرج عقيل بن علفة وابنه جثامة وابنته الجرباء . (ولعلها
 غير أم عمر التى زوجها من الخليفة فى الخبر المنقول عن طبقات
 الشعراء) حتى أتوا بيتاً له ناكحاً فى بنى مروان بالشامات (يعنى
 أن عقيلاً كان ناكحاً أى متزوجاً امرأة فى بنى مروان وقد أتاه
 زائراً مع ولديه . والشامات هى بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى

أثر هذه الراحة حتى نجدوا الجزور . فخرجوا حتى انتهوا إلى
جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة
وأزله عليهم وعالجوه حتى برئ . وألحقوه بقومه ، فلما كان قريبا
منهم تغنى :

أيعذر لاهينا ويلحين في الصبي وما هنّ والفتيان إلا شقائق
المراد بالصبي اللور الذي يكون في زمن الصبي عادة : فقال
له القوم إنما أفلتت (أو صوابه أبليت) من الجراحة التي جرحك
أبوك آنفأ وقد عاودت ما يكرهه . فامسك عن هذا ونحوه إذا
لقيته لا يلحقك منه شر وعثر (العثر الجرب والعرب بقرنونه
بالشر لأنه يتلف إبلهم فكان أبغض شيء إليهم) فأجابهم جثامة :
إنما هذه خطرة خطرت ، والراكب إذا سار يغنى (انتهى
نص المعجم .

فقول جثامة : أيعذر لاهينا الخ إنما جاء في خبر رجوع
عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بني مروان المقيمين في
الشامات كما هو في معجم البلدان ولم يجه في خبر تزويج جثامة
أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء . وقد تبين من هذا
أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين .

وفي الخبر الثاني الذي جاء في معجم البلدان وصف لنفسية
عقيل بن علفة الجاهلي الجاني الطبع ونفسية ولدته الناشئين في
الاسلام وقد فهم منه (أي من الاسلام) أنه لا يشدد النكير على
متبعيه إلا في ارتكاب منكر أو استباحة حرام . أما أن تقول
الفناء المسلبة الشعر وتحسن صنعه وتصف الخمر بما جعله الله
فيها من تأثير في جسم شاربها فلا يراه ذلك الفقي المسلم حراما ،
وإنما الحرام شربها فهو الذي يجب تجنبه ، ولذا وقف في جانب
أخته ينافح عنها . ويدراً صولة أبيه الجاهلي عليها ويرفع صوته
— كما عليه الاسلام — بان للفتيات الحق في تناول متع الحياة
المباحة كاللتيان ، وأنه كما يعذر اللاهي من الفتيان ينبغي أن
تعذر اللاهي من الفتيات : فلا يعذرون هم ويلحين هن بغيأ وعدوانا
إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً . وقد جاء هذا الشعر الذي
تمثل به جثامة قولاً شارحاً للأثر المأثور : النساء شقائق الرجال .

عبد القادر المغربي

دقيق ،

إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما على عرض ناطحته بالجامح
ضمير قضت يرجع إلى النياق . وقوله (على عرض) بالعين
المهملة ولعل صوابه (على عرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه
إذا اشتاق إليه) .

ثم قال عقيل لابنه : أنفذ يا جثامة (أي أجز البيت بضم
بيت آخر إليه) فقال جثامة :

فأصبحن بالمومات يحملن فتية نشاوى من الإلاج ميل العائم
إذا علم غادرته بتنوفة تذارعن بالأيدي لآخر طاسم
(طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) ثم قال عقيل لابنته
الجرباء : أنفذى يا جرباء فقالت :

كأن الكرى سقامهم صرّ خديبة

عقاراً تمطى في المطا والقوائم
(قول الجرباء هذا في وصف الخمر وتأثيرها في ظهر شاربها
وقوائم راب أباه عقيلاً وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شارب
الخمر وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل : شرّ بيتاً ورب الكعبة ، لولا الأمان لضربت
بالسيف تحت قرطك . أمّا وجدت من الكلام غير هذا ؟

فقال جثامة أخوها (منالاً عنها) : وهل أسأت ؟ إنما أجادت
وليس غيري وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضر أخته في خلوتها
مع أيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت في وصف الخمر ،
وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها . وإنما هي أدبية
متقنة لصنع الكلام وقرض الشعر فهي إنما تدل في شعرها
على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل . لكن دفاع
جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلاً فرماه بسهم فاصاب
ساقه وأنفذ الرجل . ثم شدّ على الجرباء ففقر ناقها ، ثم حملها على
ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء . ثم قال لولا أن تسبني
بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج
متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء : لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو
قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلك . فلما قدموا على بني القين
ندم عقيل على فعله بانه جثامة فقال لهم : هل لكم في جزور
انكسرت (يريد ناقة الجرباء التي عقرها) قالوا : نعم . قال : فالزموا

على ذكر الحرب الأهلية في اسبانيا

نهضة العلوم الطبية

في اسبانيا العربية وتأثيرها في أوروبا

للدكتور زكي على

من بين الكتب التي ظهرت أخيراً عن الحرب الأهلية المروعة القائمة في اسبانيا الآن كتاب « الثورة في اسبانيا » قال فيه مؤلفاه هاري جانس وتيودور رابارد في معرض الكلام عن ماضي اسبانيا : « إن طرد العرب من اسبانيا كان كارثة على مدينتها وقد كان الباعث عليه التعصب للروح الاقطاعية السائدة في أوروبا والرغبة في تقويض دعائم الثقافة العربية وتأثيرها »

وقد أعادت الحرب الحاضرة في أسبانيا ذكريات تاريخها الماضى وكيف كان عهد العرب أزهى عصورها ، وكثيراً ما أشارت صحف أوروبا إلى ذلك الماضى إما بالمقالات أو بالصور . وأذكر أنني رأيت صورتين رمزيّتين تبعثان في النفس مزيد الاعتبار لإحداهما في صحيفة أمريكية تمثل « عودة العرب » والآخرى على غلاف مجلة سويسرية مصورة تمثل « العرب على أبواب مدريد » . إشارة إلى انتظام فرق من عرب المغرب الاسباني في سلك جيش الجنرال فرانكو لفتح اسبانيا ، ولكن شتان بين الفتحين . وما أعظم الفرق بين المهدين . ولست بصدد الكلام عن تاريخ الفتح والحروب وإنما أحببت اتخاذ الأحوال الحاضرة وسيلة للتذكير بما كانت عليه أسبانيا من النهضة على عهد العرب قاصراً الكلام على العلوم الطبية وما كان لها من تأثير وتفوذ في الحركة الفكرية في أوروبا في ذلك الحين وهي التي صارت أساس نهضتها فيما بعد .

كان لائق نجم الثقافة العربية في سماء اسبانيا على أثر الفتح الاسلامي أعظم الأثر في نهضة العلوم الطبية لا في اسبانيا وحدها بل في أوروبا بأكملها . وكان لما أولاه الخلفاء العلوم والفنون من العناية والتشجيع فضل كبير في ازدهار الحركة الفكرية والنشاط العقلي وانبعاث أضواء الحضارة العربية لتسرى في سائر أنحاء أوروبا ، وسرعان ما أصبحت اسبانيا أسطع درة في سلسلة الثقافة العربية الممتدة من ربوع الهند إلى أقصى غرب أوروبا ، وعن طريق هذه

الحلقات المتصلة من مدينة الاسلام تدقت الكنوز الضخمة من علوم الاقدمين التي كانت نسباً منسياً قبل أن يعيشها العرب ويضيفوا إليها كنوزاً غنية جديدة بفضل عبقرتهم وأثر الاسلام في حشيمهم على البحث وحشيمهم على الكشف والدرس والتحصيل وما أتى القرن العاشر لليلاد حتى كان العرب قد أحضروا إلى أسبانيا مجموعة ضخمة من التأليف العلمية والطبية الاغريقية والعربية ، ووضعوها بذلك أساس الحركة الفكرية التي دامت في عصرها الذهبي من القرن العاشر ، إلى الثالث عشر ، وجعلت اسبانيا في ذلك الحين ، المركز الوحيد الذي يشع على أوروبا النور والعرفان ، والذي سرت منه الثقافة العربية ، حتى صارت ملبوسة الأثر في سائر أنحاء الغرب ونبغ في هذه الحركة طائفة كبيرة من علماء العرب وشخصياتهم الطبية البارزة ، وكان لأعمالهم وثوبالغهم أثر مباشر في نهضة العلوم الطبية لاسبانيا الخلفاء أكثرها من تشييد المستشفيات ، وكانوا يلحقون بها المدارس الطبية ومدارس الصيدلة والمكاتب العلمية .

وقبل أن نخص بالذكر هنا أشهر البارزين في هذه النهضة نشير إلى مايدل على مبلغ حضارة أسبانيا وازدهارها تحت حكم العرب ، فنذكر أنه في القرن العاشر بلغ عدد سكان قرطبة أكثر من ثلاثمائة ألف ، وكان بها خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وثماني مائة مدرسة وستائة مسجد ومكتبة ضخمة تحوى ستائة ألف مجلد وسبعون مكتبة خاصة . وإذا ما أشرنا في هذا المقام إلى جامع قرطبة الشهير ، الذي يعتبر من ايات الفن - لا في العصر الاسلامي وحده بل في كل العصور - فإننا نذكر الكلمة الشهيرة التي وجهها شارل الخامس سنة ١٥٢٦ إلى مجلس الكاتدرائية الكاثوليكية تويخا لهم على تشييد الكنيسة في قلب الجامع العظيم ، إذ قال لهم : « قد بنيت هنا ما تستطيعون ، وكل واحد سواكم - بنائه في جهة أخرى ولكنكم خربتم ما كان فريداً في العالم كله »

وفي صدد الحضارة العربية أيضاً يقول الطبيب المؤرخ الامريكي فكتور روبنسن صاحب « قصة الطب » : « كانت أوروبا في ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضئها المصابيح العامة ، كانت أوروبا قذرة ، بينما قرطبة شيدت ألف حمام ؛ كانت أوروبا تغطيها الموام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ؛ كانت أوروبا غارقة في الوحل ، بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ؛ كانت سقوف القصور في أوروبا مملوءة بنقوب المداخن ، بينما قصور قرطبة تزينا الزخرفة العربية العجيبة ؛ كان أشرف أوروبا لا يستطيعون إمضاء أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس ؛ كان رهبان أوروبا يلحنون في تلاوة مضر الكنيسة بينما كان معلو قرطبة

الفم ، وأول من ربط الشرايين قبل امبرواز باريه الفرنسى . وقد وصف عمليات تفتت حصاة المثانة وعملية استخراجها بالشق ، وتكلم عن مسألة التقيح ووصف الوضع المعروف باسم « وضع الحز » ، فى التوليد ، والشلل عقب كسر السلسلة الفقرية ، وتكلم بدقة عن إزالة الأجسام الغريبة من الأذن ، وأجرى عملية فتح قبة الرئة Trachéo tomie ، وعالج الخراجات الكبيرة - بشقها وتفرغها تدريجاً ، واستعمل محلول الملح فى علاج الجروح ، ووصف علاج الناسور بالكي . وهو أول من استعمل « السنارة » فى استخراج الورم المسمى « يوليوس » ، وتكلم فى موضوع الولادة عن بحى الجنين فى الأوضاع غير المنتظمة ، وعن التوليد بالآلات . وهو أول من أدخل استعمال الحرير وأوتار العود بيئة خيوط للربط فى العمليات الجراحية ، وتكلم أيضاً عن وقف النزف بالكي ، وقد بقى كتاب أبى القاسم فى « الجراحة » ، أساس التعليم الجراحى ومزاولة مهنة الجراحة فى أوروبا عدة قرون ، ونشرت ترجمته فى فينا سنة ١٤٩٧ ؛ وفى سنة ١٥٠٠ كان المعمول عليه فى تعليم الجراحة فى مدرسة البندقية بإيطاليا ، وطبع أيضاً فى « بال » ، بسويسرا سنة ١٥٤١ . وأما أشهر أطباء العرب الاكلينكيين فى الأندلس فهو محمد بن مروان بن زهر الاشيلي وعرف فى أوروبا باسم Avenzoar . (توفى سنة ١١٦٢) وهو ينحدر من عائلة عربية عريقة أنجبت كثيراً من الأطباء وذاعت شهرته الطبية فى جميع الأنحاء . وهو أول من تآزر على طريقة جالينوس وابتكر طرقاً جديدة تدل على عبقريته ؛ وأهم كتبه « التيسير » ، وفيه وصف شامل لأمراض عديدة . وكان ابن زهر أول من وصف التهاب التامور المصلى وخراج المنصف الصدرى وشلل البلعوم والتهاب الأذن الوسطى . ووصف لبن الماعز فى الدرن ، ويعتبر أيضاً أول عالم بالطبقات لأنه أول من أتقن وصف حيوان الجرب .

وأما أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد (Averroes) القرطبي (١١٢٦ - ١١٩٨) الطبيب الفيلسوف العظيم فع أنه بلغ ذروة الشهرة كفيلسوف الاسلام وشارح أرسطو فقد كان له أيضاً فضل لا ينكر فى تقدم العلوم الطبية ؛ وهو الذى هز بناء التعاليم الجالينية من أساسها ، وزعزع نظرية صفة الأدوية الكثيرة Polypharmacie فى التذاكر الطبية ، وهو أول من أشار إشارة علمية إلى الدورة الدموية فى كتابه « الكليات » ، فسبق بذلك وليم هارفى . ومن أعظم الشخصيات الأندلسية فى القرن الثانى عشر الفيلسوف الطبيب الاسرائيلى موسى بن ميمون (Maimonides) الذى صار فيما بعد طبيباً خاصاً لمسلطان صلاح الدين ، وله مؤلفات

قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة . والآن نعود لنذكرين متقدسى المشاهير فى النهضة الطبية ابن الوافد الذى اشتهر فى أوروبا باسم Abru Gue Fil (٩٩٧ - ١٠٧٤) وكان طبيباً بمستشفى طليطلة وامتاز بأنه وضع أساس طريقة عقلية للعلاج مرتكزة على النظم الغذائية . وكان أشهر مؤلفاته كتاب الادوية البسيطة De Medicamentis Simplicibus طبع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللاتينية أكثر من خمسين مرة . ثم هناك أبرز شخصية فى النهضة الطبية العربية وفخر الجراحة العربية أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الذى عرفته أوروبا باسم Albucasis (١٠١٣ - ١١٠٦) وإليه يرجع الفضل فى النهوض بمهنة الجراحة إلى المركز اللائق بها وكانت قبله قد انحطت إلى الحضيض ولكن سرعان ما بلغت الجراحة على يد أبى القاسم الزهراوى أعلى مراتبها فى ذلك العصر فانه ألف فى الطب النظرى والعملى كتابه الشهير « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وبه قسم خاص بالجراحة يقع فى ثلاثة كتب استوفى فيها أبو القاسم علوم الجراحة وعملياتها وبين آلياتها بالصور فكان تأليفه هذا أول كتاب موضح بالصور والأشكال فى الجراحة . ولا أجد فى هذا المقام قولاً أدل على مكانة الزهراوى من قول الأستاذ الشهير فورج Forgue من أعظم الجراحين الفرنسيين فى الوقت الحاضر إذ كتب عنه منذ سنوات : « يعتبر الزهراوى بلا شك أعظم شخصية فى الجراحة العربية ، وهو الحجة التى كان يلجأ إليها كافة مؤلفي الجراحة فى العصور الوسطى مع أعظم الاحترام . وقد ولد فى الزهراء (من ضواحي قرطبة) التى كانت فرساي خلفاء بنى أمية فى الأندلس . ويستحق كتابه فى « الجراحة » أن يبقى فى تاريخنا كأول تأليف فى الجراحة على أنها علم مستقل مؤسس على قواعد التشريح . وصار كتابه فيما بعد مرشد الجراحين منذ ترجمه إلى اللاتينية حوالى وسط القرن الثانى عشر جبرار دى كريمونا . وما يبرهن على أن الزهراوى كان الثقة والعمدة فى الجراحة والمشار إليه فى علومها أن سلفنا العظيم جى دى شولياك جراح مونبليه استشهد بأبى القاسم فى مؤلفاته نحو مائتى مرة !

« ولا مراء فى أن الجراحة العربية فى ذلك الحين تقدمت تقدماً عظيماً فى الغرب . ويكفى أن نذكر أنه فى أواخر القرن الثالث عشر لما قدم الجراح لا تفرانك من إيطاليا ودرس مؤلفات أبى القاسم أصدر رأيه فى جراحى باريس لذلك العهد بقوله : « يقومون بالعمليات الجراحية مع درجة من الجهل يكاد لا يوجد معها شخص واحد منهم يمكن أن يعد جراحاً حقيقياً ! » وقد كان أبو القاسم أول من كتب فى علاج الأقواس الضرسية (ن طب الأسنان) وتشوهات

عديدة في الفلسفة والطب ترجمت من العربية إلى اللاتينية ومنها كتابه في السموم والحرز من الأدوية القتالة، وكتاب البواسير، (وترى هنا صفحة من هذا الكتاب الأخير عن نسخة خطية نقلت عن الأصل الذي كتبه ابن ميمون يده) وكتاب الوصايا، في التغذية وقانون الصحة وبيان الأعراض، ومقالة في الربو، الخ

الآن (Droguerie) لبيع العقاقير البسيطة بحسب تعريفه محددة وبين الصيدليات (الأجزاء) (Pharmacie) لصرف العقاقير المركبة والنذاكر الطبية وكانت كلها موضوعة تحت الرقابة الشديدة بمقتضى القانون. وقد أدخل فردريك الثاني هذا النظام إلى أوروبا وأصدر سنة ١٢٣٣ قانوناً بقى نافذ المفعول زماناً طويلاً في صقلية، كان يكلف الطبيب بمقتضاه أن يبلغ عن أى صيدلاني (صيدلي) يثبت له أنه يبيع أدوية فاسدة

وقد أخذت أوروبا عن العرب استعمال كثير من الأدوية الجديدة ذات المفعول اللطيف والتي أدخلها العرب في المادة الطبية للعلاج مثل السنا المحكي والراوند والتمر الهندي والمسك والقشبة Cassia والمسك والكافور وجوز الطيب والقرنفل والزعفران والشمز وعرق السوس. وعن العرب أيضاً أخذت أوروبا طريقة طلاء جيوب الأدوية بالورق المذهب أو المفضض وتقطير ماء الورد، كما أن أوروبا مدينة للعرب بإدخال الجوز المقيم في القرن الحادي عشر والأكونيت (خائق الذئب) وشرح تأثير الإرجوت (الجويدار) والحفظ والقنب الهندي والعنبر. وكان دستور الأدوية (الفارما كوتيا الإسلامية) في إسبانيا يحتوي على أكثر من مائتي نبات جديد لم تعرفها أوروبا من قبل. ولا يزال كثير من الكائنات العربية الأصل مستعملة في الصيدلة إلى اليوم منها الكحول والشراب والقلوي Alkali والنفط Naphtha والبازهر (بنزهر) be zoar والجلاب jalap.

ويمتاز ذلك العصر بازدهار فن الصيدلة أيضاً وظهور التوليف الجديدة فيه. واسم ابن البيطار أشهر من أن يذكر، وقد ولد أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار في مالقة، وصار أواخر زمانه في علم النبات وأتقن دراية كتاب « ديسقوريدس » الاغريقي اتقاناً بالغاً وكان حجة لا يبارى في علوم الأدوية المفردة والحشائش، وأهم كتبه « الجامع في الأدوية المفردة » وهو فريد في ما به إذ يشتمل على وصف دقيق لأكثر من ألف وأربعمائة عقار كان جزء كبير منها جديداً في ذلك الوقت، وصار هذا الكتاب في الواقع المرجع الأساسي في أوروبا للمادة الطبية وعلوم الأغذية.

أما كتب الأدوية المركبة فكانت تسمى الاقرباذين (مأخوذة عن اليونانية) وهو اسم حرف فيما بعد في المحفوظات اللاتينية

ثم كان من مفاخر المدينة الإسلامية إنشاء المستشفيات في معظم المدن الكبيرة مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية ومرسية والمرية ومالقة وغيرها، وكان نظام هذه المستشفيات وإدارتها وتجهيزها تجهيزاً وافياً على نسق لم تعرفه أوروبا في ذلك العهد. وفضلاً عن أن هذه المستشفيات كانت مراكز لعلاج الأمراض فقد كانت أيضاً معاهد للتعليم الأكلينيكي وأكاديميات للعارف الطبية، وكانت مجهزة بمكتاب طبية نفيسة. ويعزى إلى العرب أيضاً الفضل الأول في إيجاد المستشفيات الخاصة بحدوى الأمراض العقلية ومن أهم تلك المستشفيات ما أنشأوه في بلنسية، وقد شهد جميع مؤرخي الطب بأن العرب فخر معاملته هؤلاء المرضى بالرفق والشفقة والإنسانية بينما كان « المجانين » في أوروبا يعاملون إذ ذاك كالبحرمن يعذبون

العربية، وكانت جهود هؤلاء الثلاثة بمثابة أول أثر للعلوم العربية في إنجلترا ثم لم ينقض بعد ذلك وقت طويل حتى امتاز أديلارد أوف بات بكونه أول عالم أوربي كبير حضر إلى طليطلة للتخصص في العلوم العربية، فاتصلت بذلك الحلقة الثقافية بين اسبانيا العربية وإنجلترا. ومن ثم ازداد اهتمام العلماء في إنجلترا بعلوم العرب وتفوق من بينهم ميشيل سكوت (١١٧٥ - ١٢٣٢) وروجر باكون (١٢١٤ - ١٢٩٤)

فأما سكوت فكان طيباً وفيلسوفاً ومتضلعا في العربية، وبعد أن درس في أكسفورد وباريس انتقل إلى بالرمو وبولونيا بإيطاليا، ومن هناك واصل سفره في طلب العلم إلى طليطلة ليرى ظمأه من ينابيع حكمة العرب وعلومهم وفلسفتهم، واشتهر فيما بعد بتأليفه الكثيرة في الكيمياء والفلك والطب وكان أكثر اعتماداً على المصادر العربية. وأما روجر باكون فقد اشتهر في أكسفورد بكونه شارح الفلسفة العربية والارسطوطية وألف في علم البصريات كتاباً نقل فيه عن كتب الخازن، وهناك في مكتبة مجلس كاتدرائية كاتربوري نسخة خطية مزخرفة من أواخر القرن الثالث عشر تسمى Vetus togica هي أقدم تفسير معروف لكتاب أرسطو في المنطق ظهر في إنجلترا على أثر إحياء العرب لفلسفة أرسطو، وهي تحمل اسم جون دي لندن الذي أخذ عن روجر باكون العلوم العربية.

ويرجع إلى العرب أيضاً فضل المحافظة على تراث الطب الاغريق القديم وهناك حقيقة ذات أهمية قصوى في هذا الصدد وهي أن سبعة كتب من تشريح جالينوس، وصلت أوروبا عن طريق ترجمتها العربية أما أصولها الاغريقية فكانت قد فقدت.

وكان أشهر المترجمين للعلوم الطبية من العربية إلى اللاتينية «جيرار دي كريمونا» ١١١٤ - ١١٨٧ الذي اشتغل في مدرسة طليطلة معظم حياته وأتم في العشرين السنة الأخيرة منها ثمانين ترجمة بعضها في غاية الأهمية، ومنها كتاب الجراحة لابن القاسم الزمراوى وقانون ابن سينا، وكتاب المنصورى للرازى، وبعض أجزاء الحاوى، ومن أعظم المترجمين والمفكرين من الاوروبيين في العصور الوسطى جريرت دي أوريلاك (٩٣٠ - ١٠٠٣) الذي صار فيما بعد البابا سلفستر الثاني فإنه عبر جبال البرانس وأتى إلى طليطلة لتحصيل علوم المسلمين ونقلها إلى أوروبا القوطية، ثم إنه عاد إلى فرنسا وأذاع علوم العرب في مدينة (ريمس) ثم نقل تلك العلوم إلى أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا، ويعتبر أحد واضعي أساس النهضة العلمية والأدبية والدينية في أوروبا في القرن الحادى عشر ويقال إنه الذى أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية.

ومن بين مشاهير الذين حضروا من إنجلترا إلى طليطلة روبرت

ويضطهدون. وقد أعاد جوان جيلبرت جوفريه بناء مستشفى بلنسية للأمراض العقلية عام ١٤١٠

كذلك لما أراد قليب الثانى عام ١٥٦٦ أن يعيد تنظيم المستشفيات في جريط (مدريد) أقام على أنقاض معهد سان لازاروا (وكان في الأصل مستشفى أسسه المسلمون) مستشفى جديداً باسم سان جوان دي ديوس، وضم إليه مستشفى دى لا باز للأمراض المعدية ولذوى العاهات.

وقد أظهر أطباء العرب في اسبانيا في فهم الأوبئة والعدوى مقدرة وذكاء منقطعى النظر بين كافة أطباء أوروبا في العصر القديم والعصور الوسطى، يدلك على ذلك أنهم بحثوا منشأ الأوبئة وانتشارها بالعدوى. وقد ألف الطبيب الشهير ابن الخطيب من غرناطة (١٣١٣ - ١٣٧٤) كتاباً نفيساً عن (الطاعون) وصف فيه الطاعون الذى حل بأوروبا في القرن الرابع عشر وذكر فيه أن وجود العدوى تثبتته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملايس والأوعية والحلى (كالقرط في الأذن) ومن شخص لآخر في المنزل الواحد وبإصابة ميناء سليم بوصول أناس مرضى من أرض موبومة ١٠٠٠.

وكذلك كتب «ابن خاتمة» (توفى ١٣٦٩) كتاباً عن الطاعون الذى فلك بالمرية في اسبانيا في سنى ١٣٤٨ و ١٣٤٩، وهذا الكتاب يفوق في دقته كل ما كتب في أوروبا عن الطواعين من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر.

ولا يتسع المقام هنا للأسباب في ذكر سائر التوايح من أطباء العرب في ذلك العصر. وإنما تنوه بأنه كان من أهم عوامل بث العلوم الطبية العربية ونشرها في أوروبا إنشاء مدارس الترجمة التى كانت أهمها مدرسة طليطلة التى شيدها في سنة ١١٣٠ الأسقف ريموند وازدهرت حتى القرن الثالث عشر.

وكانت جامعات العرب في اسبانيا إذ ذاك قبله أنظار طلاب العلم من كافة أنحاء أوروبا فكانوا يفدون إليها من كل حذب وصوب لينكبوا على دراسة العلوم العربية وترجمتها ثم نقلها إلى بلادهم فظل النفوذ العربى سائداً في الغرب قروناً عديدة وظلت تأليف الأطباء العرب مدة خمسمائة سنة برنامجاً لدراسة الطب في أوروبا. وما يدلك على مدى سريان النفوذ العربى وهيمته على النهضة الطبية في أوروبا أن الطبيب الشهير بطرس ألفونسو (ولد سنة ١٠٦٢) بعد أن أتمن الطب في مدارس العرب في اسبانيا قدم إلى إنجلترا ليكون طبيباً خاصاً للملك هنرى الأول واشترك مع (الحز وبراير أوف ما لفرن) في وضع كتاب في الفلك اعتمد فيه على المصادر

الفداء

للاستاذ أجد الطرابلسي

« فلما بلغ منه السبي قال يا بني إني أرى في المنام أي أذبحك
فأنظر ماذا ترى ، قل يا أبت أفعل ما تومر مستجدي إن شاء الله
من الصابرين . فلما أسلما وتله للعينين . وناديتاه أن يا إبراهيم
قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء
المبين . وفديتاه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام
على إبراهيم » قرآن كريم

شع من بَسَمَةِ الصَّباحِ الضَّياءِ وأفاقت من نومها البطحاء
وتعرت كُثبانها والرَّوابي وتغطت حضابها السَّماء
وبدأت دُكاً ، فاتفض الرِّمَّة لُ ابتهاجاً لما تبدت دُكاً
وشَّت الأرض بالظلال فنونا هي للطَّرْفِ والنهْيِ إغواء
فمن الشمس والرمال نضار ومن الظلِّ واحة غناء
السُّهوبُ الفِصاحُ ، والأفقُ الزَّا هي ، وتلك الغائمُ الشَّرقاء
والخُضْمُ المَواجِ بالماس والتب ر المصنَّى والقبة الزرقاء
والبطاحُ الغَرَقي ، وسلسلة الكنة بان ، والرَّمْلُ ، والحصى ، والسَّناء
صورة تغمُرُ العيونَ ونحيرُ عبقرى ، ومُتعة ، ورُواء
وَحة ملؤها الجبالُ وصمتُ خاشعٌ لاتشبههُ ضوضاء
أيها الشاعرُ أتند ! هل تؤدي ماتؤدِّي الطبيعة الخرساء ؟
إن صت الرَّمالُ عودٌ ومِرْما ر ونأى ومِرْهرٌ وحُداء
نغمُ يغمُ الماسِعَ سِحْراً ، وغناء ، هيباتٍ منه الغناء !

من هو السالكُ القفارَ وثيداً للأسي في جبينه سماء ؟
كاسفَ البالِ ليس يبهِّره الحسَنُ ، ولا يستيه ذاك البهاء
مطرقاً رأسه الصديقَ تبدى في أساريرِ وجهِ البأساء
وإلى جنبه ابنه جائرُ اللَّبِّ م تنزى في صدره الأهواء
يتأمَّى خطي أيبه ولججـ لان بالشاة أسوة واعتداء
يسألُ الرَّمْلَ عن وجوم أيبه فاذا الرَّمْلُ منصتٌ والفضاء

أوف إنجلترا ، (عاش حوالي ١١٤٣) وهو أول من ترجم القرآن
ثم دانييل مورلي (١١٧٠)

وكان أرنولد دي فيلا نوكا (١٢٣٥ - ١٣١٣) آخر العلماء
الاسبان الذين كان لهم نصيب وافر من ترجمة مؤلفات العرب الطبية
إلى لغات الغرب ، وقد صار فيها بعد طبيباً خاصاً لبطرس الثالث ملك
أرغون ، ودرس الطب في جامعة مونبلييه ونقل عن العرب استعمال
الصبغات في الأدوية ، وأدخلها في دساتير الأدوية الأوروبية ، كما أنه
ترجم كتاب ابن سينا عن القلب

وقد أنار العرب لأوروبا سبيل الدراسة المبينة على التجربة والمشاهدة
ويقول مؤرخ مونبلييه الشهير جرمان (الفرنسي) إن بقاء مؤلفات
الأطباء العرب في برنامج الدراسة الطبية في مونبلييه حتى ختام القرن
السادس عشر خير شاهد على صفات الايضاح والتتوير وعلى الطريقة
التعليمية التهذيبية التي امتاز بها الكتاب العلويون في الأمة العربية ،
وتوجد في سجلات كلية الطب بباريس قائمة جرد للكتب الطبية
بها في سنة ١٣٩٥ تحتوي على اثني عشر مجلداً كلها مؤلفات لأطباء العرب .
وكان لويس الحادي عشر دلتهم الفائق على صحته ولهذا كان حريصاً على
أن تكون في مكتبته كتب « الرازي » الطبيب العربي الأشهر ولم يكن
منها إذ ذاك في مكتبة مدرسة الطب بباريس سوى نسخة واحدة
فاستعارها الملك بشرط أن يردها وقد فعل !

وأرى في ختام هذا البحث أن أذكر كلمة المؤرخ « لبري » : « ولولم
يظهر العرب في التاريخ لتأخرت نهضة العلوم والفنون (الريسانس)
في أوروبا قروناً عديدة » .

(خيف) زكي على

في أصول الأدب

للاستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد في نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية
طريفة في الأدب العرب وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ
العرب منه . العوامل المؤثرة في الأدب ، أثر الحضارة العربية
في العلم والعالم . تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث
كتب في هذا الموضوع إلى اليوم . وقواعد تفصيلية للرواية
التفيلية الخ الخ .

يطلب من ادارة مجلة الرسالة وثمنه ١٢

يسأل الأرض والسماء فانه ييه أرض ولا تحيب سماء !
وتراه يهم يسأل عن ذا لك أباه الحزين لولا الحياء
يا إلهي ! هذا خليلك إبراهيم يهم يصدوا لما أرادوا القضاء
وإلى جنبه ابنه البر إسماعيل عيل سلواه في الدنيا والعزاء
جاءه وحيك المقدس في اليه ل وقد عمت الدنيا الظلماء
قال « قرب إلى السماء القرابين ، فقد شاق السما السماء
إنها تبتغي وحبسك ذبحاً ليس في غيره لها إرضاء ! »
هب من نومه الشروذ مراعاة ونأى عن جفونه الاغفاء
إنما تطلب السماء فتاه ! ليس بما تبغى السماء نجاة !
قد قضى الله ما أراد وأمضى وقضاء الله الرحيم مضى
ليكن ما أراد سوف يضحي بأبنيه وهو عيشه والهناء ..
يارحيم ألا كوان احكمتك القرا ، حارت في كنهها الحكماء
إن أضرم الجراح يارب ماعا ناه في الأرض رسلك الخلفاء
أنت قدرت أن يعذب في الارض نبي ، وينعم الأغبياء !

واستوت في سماء الشمس عجباً وتلظت من وقدها الرضاء
وتفتت فيها الجنادب فرحى وعليها من الرمال خياء
سكنت خطرة النسيم فالأرض ض لبيب والأفق والأجواء
وأناخ الخول كلكا المضي ، وأغفت كالتعب اليداء
فبكى الطفل لا يحير شكاة والفيافي عن بته صماء
مطرقاً رأسه الصغير ليخفي عن أبيه البكى ، وكيف الخفاء ؟
وأبوه الساجي يسارقه اللخظ فتتزو في صدره الأدواء
مشهد يمنع القوافي من الجري وتغيا عن وصفه الشعراء
إيه دمع البنين ماذا يعاني ويقامى من سبكك الآباء ؟
رحمة للأب الشفيق وللأم م إذا ما تباكت الأبناء !

مسح الطفل أدمعاً فوق خدييه وأهداه لها لآلاء
قائلاً والشحوب في وجهه با د كمن قد براه داله عياء :
« يا أبي قد دنا المكان وفيه للمهيض الهناء والنعماء
هوذا المذبح المقدس والحبل ، وهذي مكينك العوجاء
وعلى منكبي محرقة الذبائح ، فأين الضحية القرناء ؟
أترى قد نسيها أم تراها سقتنا بها إليه الرعاء ؟ »
صعق والده الوجيع وسالت عبدة فوق خداه عصاء
وأجاب ابنه مشيحاً بوجه غضنته السنون والآرزاء :
« يا صغيري هناك يرقبنا القر بان ، لا يقدن بنا الابطاء
لنحس الخطى إليه سراعاً فسيخلو لنا هناك البقاء »
إيه يا موكب الجلال الذي ما دت له من خشوعها الصعراء !

طال سير الفتى وناءت قواه وعراه بعد النشاط وتناه
أين يمضي به أبوه ولا ذا د لديه ، وليس في القفر ماء
ألفياق ممتدة كالآمانى لا تنهى وكلها جرداء
قلام السير الميض وما للفقير من أول وليس انتهاء ؟
وتجري وقال يستطلع السر وقد آده الوتى والظماء
وشجاء الصمت الطويل ، وللمصمت على القلب غمة دكنا :
« أبتى طال سيرنا وعراى نصب منه مريض وعناه
أين نبقى ؟ لعلنا قد ضلنا نهجنا أين قصدنا والرجاء ؟
أبتاه سكت يداى ورجلاى ، وأدمت أصابعي الحصباء
مل إلى الظل نستجم قليلا فلقد هد قوتي الإعياء ! »
فأجاب الأب الرحيم يواسيه وقد شفه الأسى والشقاء
باسماً يمنع المدامع أن تجبرى ، وأن تستفز البرحاء :
« يا صغيري الحبيب ، كيف خبا عز ملك ، أين الثبات أين المضاء ؟

فالروابي ذواهل مطرقات والنسيمات حوله سجعوا
 إن هذى الدموع ضجعت لها الدنيا ، ورجعت لسكبها الأرجاء
 وأجل الدموع ما يذرف القلب ، وتعي عن حبسه الكبرياء
 الفتى خافت الأنين صموت قد يراه طول المدى والحفاء
 وأبوه يبكي عليه حناناً يا لدمع تسخه الأنبياء
 يا لدمع تهزؤه رحمة القلب ، فيبقى الجفون الآباء

ذاك إبليس فتنة الشر والآثام ، من كل همة الاغواء
 ساءه أن يفوز ما أمر الله ، وأن يخذل الخنا والرياء
 فأتى هاجراً ينبئها الأمر ، وإبليس ساعده النساء
 قال : « فيم التواء يا أم إسماعيل ، والتكلم بين والشقاء
 لست تدري ما يحبك لك المقادير ، نامت عن حظها الأشقياء
 قد غدا بابنك الحبيب إبراهيم تحبوه جنة هوجاء
 زاعماً - والاله أعول من أن تصطلي نار سخطه الأبرياء -
 أن وحياً أتاه ، في الليل ، والناس نيام ، والأرض والآنا
 ودعاه ليذبح الطفل صبراً ! تلك رؤيا كذوبة شعاع
 أسرع ! أتقديه ! من قبل أن تر وي بقاء دمايه الغبراء ... »

فأجابته وهي تخفي أساها ولظاها : « لن يكذب الإيحاء
 إن يكن ذلك ما أراد إلهي فهو الخير كله والهناء »

إيه إبليس ! خاب فالك يا مسكين ! ما كل غادق حواء !

وصل الوالد الحزين ، ولكن ود لو طال سيره والعناء
 وابنه من ورائه متقل الخطر ، تلفت في صدره الصعداء
 رازح تحت عبئه لاهث الصدور ، ولاظهر كالمسن انحناء
 حط عن منكبيه وهو يجيل الـ طرف : أين الخراف ، أين الظباء !
 نظر الطفل حوله ، فاذا الأر ض خلاء من الأضاحي قواء
 وتحرقى فلم يجد حوله الذبيح ولا هز مسميه ثناء

فرنا ثائر الشكوك ، وفي عينيه شوق للسر واستقصاء
 وأبوه يحار في فمه النطق ، وفي الرزة تبكم البلغاء
 شد من حزنه على قلبه الواهي ، وعشت عيون الضراء
 وتهافت دموعه مثل ما رفقت على زنبق الربى الأنداء
 رب رحماك ! ما يقول ؟ وما ينفش ؟ وكيف المقال والإفشاء ؟
 هبه يارب من لذلك بياناً فلقد عقد اللسان البلاء !
 قال يانور مقننى ويامن هو عيشى وسلوى والرجاء
 يا وحيدى ! يا مائلى ! يا سراجى ما تدججت هموى الكدراء
 طال ما قد كتمت عنك من السر م وقد شاق صممك الاصغاء
 يارجاني ! ماذا أقول ؟ وهل للـ طق في زحمة الدموع غناء ؟
 كلما هم بالكلام لسانى أبيتته المصيبة السوداء !
 أترى أنت إن ذكرت لك الائمة ر مطيعى أم غاضب أباء ؟
 جاءنى الوحي في المنام بأمر ليس فيه دفع ولا إرجاء -
 قالى : اذبح غداً وحيدك ، يالـ هول تنزو لذكره الأحناء
 يابنى ! انظر ما تراه ، ولا تأخذك في غضبة ولا استهزاء
 ليت شعري ! أذاك أمر إلهي أم ترى تلك لوثى الحفاء ؟ »

فأشمر الفتى كما انتفضت في خطرة الريح وردة حسناء
 وسرت رهبة الردى في مجيا م ، ورفت غمامة صفراء
 ود لو يكتم الأسى عن أبيه ، كيف يخفى عن العيون الداء ؟
 رعدة الموت ما تخلص منها قراء قضا ولا أمراء
 إنما الموت حياحله في الكو خر وفي القصر غمة وبلاء
 هو للشيب مثلاً هو للأط فال ، غول ، وحية ، رقطاء
 وأجاب الفتى يواسى أباه لو يفيد المزاء والتأساء !
 « أبتاه ! هوّن عليك ! فاني لست بمن من القضاء يساء
 حبذا مصرعى بكفك إما كان فيه لرينا إرضاء
 أبتاه ! افضل ما أمرت ولا تأخذك في رحمة ولا أهواء
 أنفذ الوحي يا أبى ! هل يطيع الله إلا المعاصر السعداء ؟ »

أبتاه ! إن حان يومى فهل عندى مُجيدٌ ، أو هل ليومى انقضاء ؟
 أينما خالده على هذه الأرض ضى ، وما للحياة فيها بقاء ؟
 لا الهن يا أبى هلم فاضجمنى من قبل أن يذبّ الماء
 ثم عصب عيني رقفاً بمندبيل ، فليَمُوتِ سحنة نكراء
 واشحذ الخنجر المظلم حتى تفلظ شيباته الحمراء
 ثم ضعه على خناقى واذهبنى كما تُذبحُ الطبا والشاة ...
 فإذا ما ذبحتنى وتروّت من دمي هذه الرمال اللظيما
 فاحترس أن يصيب كفك شئ منه ، أو أن يبلّ منك الرداء
 وتجنب رشائه ، لا الهن أجرك فيه ، ولا يقلّ الجزاء
 دعه لارمل ينسرب في حنايا ، قفيه لحرقها إطفاء
 دعه يذهب كما تبدّد عطر في الفضا أو تغيّبت أصداء ..
 وإذا ما فرغت منى وحالت بيننا ظلمة الردى السحما
 وأردت الرجوع بعدى إلى الدار ، فلي يا أبى إليك رجاء
 ذاك ثوبى فانزع عني إذا مت ، وقد خضبت منى الدماء
 واجبه إذ تعود ذكرى لأُمى فبسر سلوة لها وعزاء
 إيه ! أمّاه لو علمت مصيرى وتبيّنت ما تريد الساء
 لتمكّيت منك لثماً وتقية لاء ، ولكن هيهات منا اللقاء !
 لست أُمى إلا عليك من الدنيا ، ولولاك لم ير عني العفاء ..
 عذب الموت في سبيلك يارب وساغ البلى وطاب الفناء
 فرور السكّين في العنق لثم ولهب الثيران ظلّ وما ..

يا خليل الرحمن هيا ارفع الطفل فقد ردتته إليك السماء
 واذهب الكباش يانبي فداء عظم الفتدى وطاب الفداء
 واسجداً خاشعين شكر المنعم البرايا فداء والآلاء
 رحمة الله تغمر الجرم المناصى ، فكيف الخلائق الأبرياء

إيه شمرى قد تيمّنتك البطولا ت وأغواك نورها الوضاء
 غنّها فهي للجراحات ملهى وعزاء وبأسم وشفاء
 واروها فالشباب مُصغ لما تنشد قد هداه الأسى والدماء
 والزمان الشقى ساد به الشر وأخنى على بنيه الشقاء
 عذبت في جحيمه العبقرياً ت كما فاز بالنعم الرّياه ...
 غنّها ربما تمرّى جريحاً أو تجافت عن ذلّها الجبناء
 مير الخالدين كم شبّ في أمضائها الخالدون والعظام

أبحر الطرامسى

دمشق

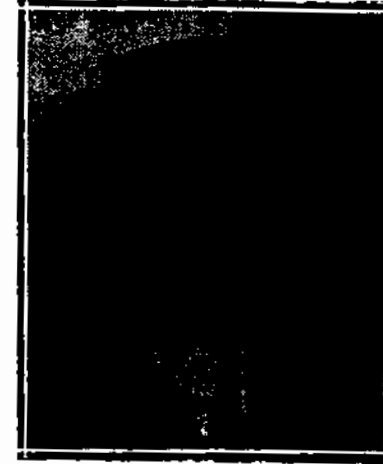
أضجع الوالد ابنه مثلما نُضجُ جمعُ شاةٍ وديعة خرساء
 والفتى ساكن كما نام في المهد في تغنيه أمّه الحسناء
 مقوِّض عينه على الدمع ، هل يد يدٍ إلا الأذلة الجبناء ؟
 والأب الواله المعضب تدوي نائرات في صدره الأنواء
 قبل الطفّل ثم عصب عينيه وقد ينفع البصير الغطاء
 تؤلم المصير الدياجى وتنجو من قذاهن مقلة عياء

علم التاريخ عند العرب

للاستاذ عبد الحميد العبادي

التاريخ بالهمز والتاريخ

بدون همز ، والتورخ ،
تعريف الوقت . وهو لفظ
عربي أصيل ، وقيل بل
دخيل مأخوذ من أصل
سرياني معناه (الشهر) ؛
وكانوا قبل الإسلام يوقتون
بالنجوم والأهلة يكسبون
الشمور لحافاً للسنة للقمرية
بالسنة الشمسية ؛ وكانوا



يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء
الكعبة ونحوهما . فلما كانت خلافة ثاني الخلفاء أمر عمر الناس
فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا
هذا في اللغة ؛ أما في الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث
عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الإنسان والزمان .
وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، فما معرفة بسيطة ساذجة من
معارف العرب قبل الإسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح
علماً من أجل علومهم وأعظمها شأنًا . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة
الامية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية
الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ؛ وشذ عن
تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة
وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند
على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة ؛ ودون
الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة
وكنائسها

فلما جاء الإسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى
معرفة سيرة الرسول العربي وأحواله استقصاء السنة توفر رجال
على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب

في الإسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه
نوعاً من أنواع الحديث . وأقدم من كتب في موضوع السيرة
عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ هـ ، وأبان بن عثمان
ابن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وهب بن منبه المتوفى حوالي
عام ١١٠ هـ . ثم انتهى علم السيرة والمغازي إلى رجلين من
الموالي هما محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٢ هـ وقد اختصر سيرته
ابن هشام المتوفى عام ٢١٨ هـ ومختصره هذا هو الذي بأيدي الناس
اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، وكثير من
روايته مضمن في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام
٢٣٠ هـ هذا إلى كتاب له في مغازي الرسول مطبوع متداول

وفي أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ، ووقعت
الفتن العظمى ، ونبض عرق العصية القبلية ، وشاعت بين المسلمين
أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية على أيدي رجال
مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شريك المتوفى
حوالي عام ٧٠ هـ وهب بن منبه المتوفى حوالي عام ١١٠ هـ
فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة
بكل ذلك ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلاً دعت إليه رغبة العلماء في
فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت في الكتاب والسنة ، وميل
بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك
ومكائدهم ؛ هذا فضلاً عن حرص الموالى على التوثيق بمجد بلادهم
القديمة . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة
الشعراء إليها عامة في مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب
خاصة للاستعانة بها في تقدير العطاء للجنود . وكان الباعث الأقوى
على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاية الأمور في معرفة ما فتح
من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكماً
خاصاً من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجد
إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار
الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الإسلام . وقد أطلقوا
على ذلك كله لفظ « الأخبار » وعلى المتخصص في روايته « الأخباري » ،
كما عرف المتخصص في رواية الحديث « بالمحدث » . ونلاحظ
أنقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن اسحق
والواقدي المتقدم الذكر . والمبداً المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل

قبل الاسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الاسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية في المادة التاريخية ودقة وتحريراً في مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الانشاء والجند والخراج والبريد، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن يتفعوا بها في بحثهم، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك . ثم إنه في العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالي عام ١٤٠ لكتاني خدينامه وآيننامه في تاريخ الفرس وأحوالهم؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير الذي ترجمه إلى العربية البلاذري المتوفى عام ٢٧٩، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالاندلس حوالي منتصف القرن الرابع . ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الاسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ، ولروية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة . وعلى الجملة فإن مؤرخي القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسمية (٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية (٤) المشاهدة والعيان

وتعاطم المادة التاريخية وتحريروا مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنًا، وأخذ المؤرخون مكاتبتهم بين علماء الدولة الاسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضائل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد السمعاني المتوفى عام ٥٦٣ بقوله: « ويقال لمن يروى الحكايات

من هؤلاء كان محدثاً وأخبارياً معاً . كما نلاحظ بداية التخصص في الأخبار في مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ وكان مقدماً في علم الانساب، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧ هـ وقد جمع أخبار بني أمية، وأبي مخنف المتوفى عام ١٥٧ هـ، وله كتب في الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف ابن عمر المتوفى عام ١٧٠ هـ وله كتاب كبير في الفتوح، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام ٢٠٤ هـ وله في أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الاسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم في كتاب الفهرست، وقد طبع منها حديثاً كتاب الأصنام،

وقد وجد في تلك المرحلة نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لبعض الأقطار الاسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم: « قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفوحها يزيد على غيره، والمدايني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام،

على أن المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعاً وأسمى منزلة من الأخبارى؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث وإلى أن الأخبار وخصوصاً قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق . ولقد بلغ الأمر بهم أن كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار، فقد ضعفوا محمد بن إسحق وكان أصلاً رواية للحديث . ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسمى بهم أهل العلم الأول . وربما لم يستحسنوا للفقهاء المختصين باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار . ذكر ابن خلكان « أن أبا يوسف كان يحفظ المغازي وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازي من محمد بن إسحق أو غيره وأخل بمجلس أبي حنيفة، فلما أتاه قال له أبو حنيفة، يا أبا يوسف امن كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملائكة أن كان أولاً، وقة بدر أو أحد، فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه،

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الموضوعات الاساسية للتاريخ عند العرب، وهي: (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب

والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق، ولم تكد تلك النعمة تتجلى عن العالم الاسلامي حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهي غارة المغول، فقضى على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الاسلامية في القارة الآسيوية تدميراً

وانقضت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام، فكان طبيعياً أن ينحو المؤرخ الاسلامي في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفياً عميقاً فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك. وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ في مقدمة تاريخه التي لم يكتب مثلها في الاسلام على الإطلاق. ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلاً للتاريخ فوضع في ذلك الصفدى (٧٦٤) مقدمة كتابه الوافي بالوفيات، والسخاوي المتوفى عام ٩٠٣ كتابه الاعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ.

فبرى القارىء أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوي، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر، فلما نصب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجري على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها

ذلك بمجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالاً وهرماً وفناءً؛ أما من حيث الطريقة العلمية التي اتبعوها فالتاريخ ابتداءً عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية وتقدمها، فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مآثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلي وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما هي الحال في رواية أخبار السيرة والاسلام، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضائع، أو من بعض أهل البادية، وتلك كانت الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الاسلام. فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة، لاموضوعياً منصباً على المرويات. هذه الطريقة ضمنت

والقصص والنوادر الاخبارى، نذكر من بين مؤرخي القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفي عام ٢٧٠، والبلاذري صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفي عام ٢٧٩، واليعقوبي صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفي عام ٢٨٤، والدينوري صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ وابن جرير الطبري صاحب تاريخ الرسل والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ

أخذت الوحدة السياسية التي انتظمت الدولة العباسية تتداعى من منتصف القرن الثالث، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون مختلفو الاجناس في مشارق الدولة ومغاربها، وجرت اللامركزية السياسية إلى لامركزية أدبية، فتوزعت الثقافة الاسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة في حاضرة الخلافة وحدها. ونافت بغداد قرطبة والقروان ومصر وحلب وأصفهان، وغزنة والرى وبلخ وغيرها، وكثر العلماء في الأمصار كثرة عظيمة. كل ذلك أثر في كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح في كثرة مآثر إبتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧، وكتاب ولاية مصر وقضائها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١. والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع). ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦). ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابه مروج الذهب وأخبار الزمان. وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل

واستعج التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الاسلامي فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجتروا عليه واستباحوا حماه، وبدت مقدمات ذلك في استئساد الروم واتقاصهم شمالي الشام في القرن الرابع، ثم أغار الصليبيون في القرن الخامس

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أذاها وتصويرها : أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلاً غير متكلف ، وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما في العقود الأولى من تاريخ الطبرى وفى بعض فصول ابن مسكويه والصولى .

ويمكن تلخيص أوجه النقص في طريقتهم في أمور ثلاثة : ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام ، وإدارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة في أبسط صورها ، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجاعات أو بتعليل الحوادث والنفوذ إلى أسرارها . على أنه مهما قيل في نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك في صياغتها ما فاتهم . وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالأسناد والتوقيت الكامل ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثره إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى ، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم

عبد الحميد العبادي

لهم إلى حد بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخي من السيرة وبحوادث الدولة الإسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك في أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هي أضعف وأغمض نواحي كتب التاريخ عند العرب .

وإذا كان الأسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى . قال المؤرخ الانجليزي (بكل) : إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوروبا قبل عام ١٥٩٧ . على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم ، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع في توقيته خلط شديد واختلاف كثير . ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التي سبقت الإشارة إليها .

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك في تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعاً وإجازة ؛ فكتاب الأضنام مثلاً تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠ . ومثل ذلك يقال في مغازي الواقدي وكثير غيره من كتب التاريخ . وتلك مبالغة محمودة في المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتمدة أمهات وأصولاً .

تلك طريقتهم في جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها : أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازي والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث ؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا في عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين ، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ ، ثم اتبعها من بعده الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء . والآخرى الترتيب على العهود ، وقد جرى عليها اليعقوبي والدينوري والمسعودي وغيرهم .



التصوف الفلسفي في الاسلام

للدكتور أبو العلا عفيفي

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سأعرض في

هذا البحث للتصوف
الفلسفي من ناحية
نشأته والعناصر التي
دخلت في تكوينه لا
من حيث مسائله ولا
نظرياته، وإن كنت
سأشير إلى بعض
هذه النظريات
أشارة سريعة مجملة
ونشأة التصوف
الفلسفي في الاسلام

متصلة بنشأة التصوف نفسه من جهة، وبنشأة الزهد الذي تقدم
التصوف الفلسفي منه وغير الفلسفي

وربما خلط بعض الناس بين التصوف والتصوف الفلسفي
من جهة، وبين التصوف والزهد من جهة أخرى؛ أو فهم
الثلاثة أنها من المترادفات، وليس هذا بنادر الوقوع. أما الزهد
فهو الناحية العملية من الطريق الصوفي؛ أو هو الحياة التي يجيهاها
الصوفي، تلك الحياة البادية في مظهره الخارجي من تقشف في
المأكل والمشرب واعتزال للناس وانقطاع إلى الله، والبادية في
حياته الباطنة الروحية من خشية من الله وورع وتقوى وعبادة
وصوم وصلاة وذكر وتهجد وهجر للدنيا وزخرفها. وأما
التصوف فأصدق وصف له أنه طريق لتصفية النفس ومجاهدتها
ورياضتها والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام
والترقي بها في خطوات بطيئة عسيرة حتى يصل بها صاحبها إلى
المقام الذي يطلق عليه الصوفية اسم مقام الشهود أو الوجد أو
الفناء - وهو المقام الذي يدرك فيه الصوفي - وفي هذه الحالة

لا فرق بين صوفي مسلم وصوفي مسيحي أو يهودي أو بوذي -
يدرك من الحقائق ما لا سبيل للعقل الانساني أن يدركه، ويتذوق
من المعاني ما يكمل اللسان الانساني عن شرحه
وأما التصوف الفلسفي فهو الأساس الميتافيزيقي أو النظريات
الفلسفية التي يحاول بها الصوفيون في وقت صحوهم تفسير أو تحليل
ما يجدونه في وقت سكرتهم أو في حالة وجدهم

وقد وجدت هذه الأنواع الثلاثة في الاسلام وظهرت
فيه ظهورا تاريخيا متواليا بحيث يمكن اعتبار كل منها دورا من
أدوار التصوف هو بمثابة المقدمة المنطقية للدور الذي يليه،
فظهر الزهد في القرنين الأولين من الهجرة، وظهر التصوف
في القرن الثالث، وظهر التصوف الاسلامي في القرن الرابع وما
بعده، ولم يأت القرن السادس والسابع حتى يبلغ التصوف
الفلسفي أقصى حده في النضوج ثم ضعف شأنه بعد ذلك تدريجياً
أما الزهد فقد ظهر في الاسلام قويا فتيا بمجرد ظهور
الاسلام تقريبا؛ ذلك أن الاسلام دين ورحمة وزهد وتقوى؛
وليس دين دنيا وشهوات ولذات كما يصفه بذلك أعداؤه الذين
يحاولون تحليل نشأة الزهد في الاسلام بأنها راجعة إلى عوامل
كلها خارجة عن الاسلام، ويخصون بالذكر من بين هذه العوامل
المسيحية والرهبة المسيحية التي كانت منتشرة في صحراء العرب
وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية

نعم لم يدع الاسلام إلى الرهبة، بل هو صريح في إنكارها
في القرآن والحديث، ولكنه دعا إلى العبادة والورع والتقوى
والتهجد وقيام الليل والصوم والصلاة

نعم لم يذكر القرآن كلمة زهد ولا مادة الزهد إلا في آية واحدة
في سورة يوسف في قوله تعالى: وشروه بثمن بخس دراهم
معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، ولم يذكرها هنا على سبيل
المدح ولا بالمعنى الذي تتكلم عنه، ولكنه وإن لم يذكر الزاهد،
فقد ذكر العابدين والسائحين والقانتين والمختين والركع السجود،
وكل هذه من صفات الزاهدين

واذا كان الزهد طريقة للتقرب إلى الله ومناجاته وذكره فقد
وصف القرآن الله بأنه رحيم، وبأنه ودود، وبأنه قريب من
عبده، بل إنه أقرب إليه من حبل الوريد، وبأنه سميع مجيب
يجيب دعوة الداعي إذا دعاه

فلا حجة للقائلين بأن فكرة الحب الإلهي قد دخلت إلى الزهد الإسلامي عن طريق المسيحية لأن الإسلام قد قضى على كل أمل في الاتصال الروحي بين العبد وربّه بوصفه الله بأنه جبار متكبر متعظم الخ

ظهر الزهد في الإسلام اذن داعيا إليه الإسلام كما قلنا وداعيا إليه ظروف أخرى هي الظروف السياسية القاسية التي عاش فيها المسلمون في عهد الخلفاء وعهد بني أمية — فقد كان هذا العصر عصرا حروب وقتل مستمرة وقلاقل واضطرابات — وفيه دخلت النظريات السياسية إلى العقائد الدينية، وتدخل الحكام في آراء الناس الدينية ومعتقداتهم، فاضطهدت الحرية وكبت التفكير الحر: فشعر من لم يميلوا إلى اعتزال الناس بضرورة العزلة وزهدوا في الدنيا وزخرفها وفي الحكومة والحكام

أما الرهبة المسيحية فقد كان لها أيضا أثرها في الزهد الإسلامي لآمن حيث أنها كانت السبب في وجوده، بل من ناحية أنه تسرب إلى طريقة المسلمين في الزهد كثير من تقاليد الرهبان المسيحيين وعاداتهم وطقوسهم

بل إن القرن الثاني لم يكبد ينتهي حتى انتظمت حركة الزهد الإسلامي داخل أديرة وصوامع أشبه بأديرة وصوامع المسيحيين: فأُسست خانقاه في دمشق سنة ١٥٠ هـ وأخرى بخراسان سنة ٢٠٠ هـ ويقول عبد الرحمن جامي في كتابه نفحات الأنس أن أول خانقاه أُسست في الإسلام كانت بالرملة بفلسطين أسسها في القرن الثاني راهب مسيحي — وإن كان المقرئ يقول في الخطط إن الأديرة لم تظهر في الإسلام إلا في القرن الخامس الهجري — ولعله يقصد بذلك انتشار الأديرة في البلاد الإسلامية لا مجرد وجود بعضها

وقد امتاز الزهد في القرنين الأول والثاني — ولا سيما القرن الثاني بصدق الورع والتقوى وسلامة الإيمان والخشية الشديدة من الله ومن عذاب جهنم، والأمل الشديد في الخطوة بروية الله في الدار الآخرة، وكثرة المناجاة والكلام في الحب الإلهي

وقد تغلغل الزهد في نفوس المسلمين العامة والخاصة على السواء، وظهر منهم في القرن الثاني أمثال الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ والمؤسس لفرقة الصوفية بالبصرة، وإبراهيم بن أدهم البخلي المتوفى سنة ١٦١ هـ، وداود بن نصير المتوفى سنة ١٦٥ هـ، والفضيل

ابن عياض المتوفى سنة ١٨٦ هـ، ومن النساء رابعة العدوية التي توفيت سنة ١٣٥ هـ وكانت رابعة آية من آيات الله في الزهد: زهدت أولا في الحياة الدنيا وزخرفها طمعا في الآخرة وجنتها، ثم زهدت في الجنة طمعا في الفوز بمحبة الله ورضاه

وقد حل الحب الإلهي من قلبها كل مكان فأصبحت لا تنأجى سوى الله ولا تتحدث إلا إليه؛ وفي هذا يحكى شهاب الدين السهروردي في عوارف المعارف أنها كانت تقول:

إني جعلتك في القواد مؤانسي وأبحت جسمي من أراد جلوسي فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في القواد جليسي ويقول القشيري عنها إنها كانت تقول في مناجاتها: إلهي! تحرق بالنار قلبي يحبك؟، فهتف بها هاتف: ما كنا نفعل ذلك؛ فلا تظني بنا ظن السوء

أما القرن الثالث فدور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيقي. والواقع أن هذا الدور كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف. في هذا القرن نجد كلمة «صوفي» شائعة الاستعمال ولم يكثر استعمالها قبل نهاية القرن الثاني خلافا لما ذهب إليه القشيري، فلم يفرق الناس بين زاهد وصوفي لأنه لم يوجد من الزهاد من ينطبق عليه وصف صوفي بالمعنى الدقيق. أما في القرن الثالث فحصل التمييز بينهما فسمى الزاهد زاهدا وسمى الصوفي صوفيا أحيانا وعارفا أحيانا

بل إننا نجد في هذا القرن تحولاً في وجهة نظر الزهاد أنفسهم، فأنهم لم يعودوا ينظرون إلى الزهد باعتباره غاية في نفسه، بل نظروا إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاية أخرى هي الكشف: أي أنهم اعتبروا الزهد مرحلة من مراحل الطريق بواسطة يصل السالك أو المريد إلى تصفية النفس والترقي بها في معارج الحياة الروحية إلى أن يصل بها إلى حالة الفناء التي تنكشف له فيها الحقائق الإلهية، فتعكس هذه الحقائق على مرآة قلبه كما تنعكس صور المرئيات على صفحة المرآة الصقيلة المجلوة

وفي هذا القرن أيضا نجد القوم يكثرون من الكلام في المواعيد والأذواق، ويصفون الأحوال والمقامات، ويتكلمون في الصحو والسكر والخمر وفي الوحدة والسكر والتفريد والتجريد والفناء

وبالقاء وغير ذلك من أحوالهم الصوفية

يعرف معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ التصوف بأنه
الآخذ بالحقائق واليأس بما في أيدي الناس؛ يريد أنه إدراك
الحقائق الإلهية بواسطة الكشف والزهد في الدنيا. وهذا تعريف
جديد للتصوف لم نسمع به من قبل

ونعمة أخرى جديدة نسمعها من ذي النون المصري الذي
كان أول من تكلم في المعرفة الحاصلة بالكشف واعتبرها المقياس
الحقيقي لحياة الرجل الصوفي، يقول: إنه بمقدار ما يعرف الصوفي
من ربه يكون إنكاره لنفسه. وتتمام المعرفة بالله تمام إنكار
الذات، وهي الحالة التي عبر عنها غيره بالفناء

وفي هذا المعنى يقول الحسين بن علي بن يزيد بنار: «يكون
العارف بمشهد من الحق إذا بدا الشاهد، وفي الشواهد، وذهب
الحواس، واضمحل الاحساس، وهو قول ينسبه بعض الصوفية
للشبل، ونعمة ثالثة نسمعها من أبي يزيد البسطامي (المتوفى
سنة ٢٦١). في الحال التي يعبر عنها القوم بالفناء: يقول أبو يزيد
وقد سئل عن العارف (أي الصوفي): «لخلق أحوال ولا حال
للعارف، لأنه محيى آثاره ورسومه، وفيت هويته (أي شخصيته)
لهوية غيره، وعييت آثاره لآثار غيره؛ فالعارف خيار والزاهد
سيار، وفي هذا إشارة صريحة إلى التفرقة بين الزاهد والعارف
أو الصوفي».

في أثناء هذا القرن كان التصوف الفلسفي في دور التكوين؛
فقد توفرت العوامل على ظهوره، وتبيأت النفوس لقبوله.
وظهرت بوادره بالفعل في عبارات بعض الصوفية أمثال ذي النون
المصري وأبي يزيد البسطامي. ولكن من المفارقة أن نقول إن
لاحد من متصوفة القرن الثالث مذهباً فلسفياً خاصاً أو عقيدة
فلسفية صوفية معينة، على الرغم من أن كثيراً من أقوالهم يمكن
تأويلها تأويلاً فلسفياً

ولكن سرعان ما انتهى عصر الانتقال وبدأ التصوف يدخل
في دوره الثالث وهو الدور الفلسفي الحقيقي؛ وكان ذلك في القرن
الرابع وما بعده، فقد تحول التصوف إلى شكل جديد بدخول
النظريات الفلسفية فيه. وربما كان أول السابقين إلى هذا الميدان
الحسين بن منصور الخلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ

لم يقف الصوفية بعد القرن الثالث عند حد الكشف والشعور

بالمواجد والأذواق في أحوالهم الصوفية، بل حاولوا أن يفسروا
ما يدركون ويؤولوا ما يشعرون به، ويعملوا لما يتذوقونه من
تلك المعاني التي هي فوق طور العقل، فكانت نتيجة شرحهم
وتفسيرهم وتحليلهم أن وضعوا نظرياتهم الفلسفية. عرفوا
الكشف في أحوالهم فحاولوا أن يضعوا نظرية للكشف في صيغهم:
أدركوا وحدة الوجود في حالة فناهم فحاولوا تفسير وحدة
الوجود. أدركوا الوحدة في الكشف والتعدد في الصحو -
فدعاهم ذلك إلى تفسير معنى الوحدة والكثرة، ومعنى الحق والخلق
ومعنى الفيض والاتصال، والجمع والتفرقة وغير ذلك

فمجموعة تفسيراتهم لمظاهر الحياة الصوفية هي الذي نعينه
بفلسفتهم التي يمكننا أن نلخصها في ثلاث نظريات: نظريتهم في
طبيعة الوجود، نظريتهم في المعرفة، نظريتهم في الإنسان ومركزه
في العالم وموقفه من الله

على أن من الصوفية من رجال العصر المتأخر أمثال
محيي الدين بن عدي، وشهاب الدين عمر السهروردي المقتول، من
سلك مسلك الفلاسفة من بادية الأمر، فكانت لهم وجهات نظر -
فلسفية خاصة في طبيعة الوجود وفي الإنسان والعالم، فاستعملوا
المنهج النظري الفلسفي وأساليب الفلاسفة واصطلاحاتهم
واستدلالاتهم، ثم نظروا إلى التصوف باعتباره مرحلة متممة
لمذهبهم، كما نظر الصوفية إلى الزهد باعتباره مرحلة متممة لطريقتهم
والفرق بين هذا النوع من الصوفية والنوع الأول أن الأولين
أمثال الخلاج يضعون نظرياتهم الفلسفية في عرض تأويلهم
وتفسيرهم لما يشاهدونه في أحوالهم ومواجهتهم؛ أما الآخرون
فيلجأون للكشف والذوق تأكيداً وتحقيقاً للنتائج التي يصلون
إليها بالنظر العقلي

وهذه الطريقة ممثلة تمام التمثيل في كتب ابن العربي بوجه -
خاص، فانه بعد أن يبحث المسائل الفلسفية بحثاً عميقاً ويناقشها
من جميع وجوها يحس كأن العقل غير كاف في الوصول إلى
درجة اليقين فيها، فيحيل القارئ إلى الكشف والذوق، أو يخبره
بأنه هو نفسه قد أدرك حقيقتها كشفاً أو ذوقاً

صار التصوف الفلسفي بعد ذلك سيراً حثيثاً بخطوات واسعة
فسيحة وظهرت فيه المذاهب الفلسفية الكاملة، بل والمدارس
الفلسفية، وألفت فيه المؤلفات أمثال الأحياء والمشكاة للفرازي

والنصوص والفتوحات لابن العربي وحكمة الاشراق للسهروردي
والانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي
أما العوامل التي ساعدت على ظهور التصوف الفلسفي
فكثيرة ومتعددة ، فقد كانت البيئة التي يعيش فيها متصوفة
القرن الثالث وما بعده مزيجاً غريباً من الأمم المختلفة والثقافات
المختلفة والديانات المختلفة والفلسفات المختلفة ، بل كان الجو الذي
يتنفس فيه المسلمون خليطاً من هذه العناصر كلها : فلا عجب
إذن أن يأتي التصوف الفلسفي في الاسلام مثلاً لكل مذهب من
المذاهب ، حاوياً لكل بدعة إسلامية وغير إسلامية ، فان فلسفة
التصوف الاسلامي ليست مذهباً واحداً ولا عقيدة واحدة ، بل
مجموعة من المذاهب بعضها يتفق مع روح الاسلام وبعضها
يتعارض مع التعاليم الاسلامية معارضة صريحة
واهم هذه العناصر التي دخلت في التصوف الفلسفي ومنها
تركب هي :

أولاً - التصوف نفسه بكل ما فيه من وصف للحياة
الزوجية ، وكلام في المقامات والاحوال ، وذكر للواجب
والآذواق ، وتعبيرات عن خاطر النفس ومحاسبتها ومراقبتها
ثانياً - القرآن والحديث : فان الصوفية قد اتخذوا كثيراً
من الآيات القرآنية أساساً لنظرياتهم فأولوها تأويلات تتفق وروح
هذه النظريات ، وذلك مثل قوله تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه .
وقوله : كل من عليها فان ، وقوله : الله نور السموات والأرض الخ
فقد أولوا الوجه في الآيتين الأوليين على أنه الذات الالهية
الازلية المقومة لكل موجود ؛ وأولوا الهالك والغاني على أنه
مظاهر الوجود أو الوجود المتكسر : أما النور ففسروه تفسيراً
زرادشتياً على أنه الوجود الحقيقي وضده الظلمة التي هي العدم
المحض . أما الأحاديث التي يستشهد به الصوفية فأكثرها
مدخول على النبي متحل

ثالثاً - علم الكلام : فقد وصل علم الكلام في إبان ظهور
التصوف الفلسفي في الاسلام أقصى حده في التصوف الفلسفي ،
وتسرب الكثير من نظرياته إلى نظريات الصوفية
والمعروف أن عدداً كبيراً من رجال الصوفية في القرن
الثالث كانوا من كبار المتكلمين أيضاً أمثال أبي القاسم الجنيدى
والحارث المحاسبي وغيرهما

من يمشهم بتيجتين :
الأولى : نفي العلل كلها والقول بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله
والثانية : نفي الوجود المتكسر الظاهر في الكون والقول
بأنه وجود زائل متغير - وأن المقوم لكل موجود والحقيقي في
كل موجود هو الحق أو الله
وهكذا بدوا بقولهم : لا إله إلا الله ، وانتهوا بقولهم : لا موجود
على الحقيقة إلا الله . ثم وجدوا - أو خيل اليهم أنهم وجدوا -
ما يعزز دعواهم هذه في الحالة الصوفية التي يعبرون عنها بالفناء
وهي الحالة التي يشعر فيها الصوفي بالوحدة المطلقة فلا يدرك فيها
فرقاً بين حق وخلق - وهي الحالة التي صاح فيها الحلّاج بقوله :
أنا الحق !

وقد سمي الصوفية عقيدة التوحيد بتوحيد العوام ، وعقيدة
وحدة الوحدة بتوحيد الخواص ، وأوردوا لكل منهما تعريفاً خاصاً
يقول الجنيد في تعريف توحيد العوام إنه أفراد الموحّد
بتحقيق وحدانيته . ويقول في تعريف الخواص إنه الخروج من
ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمديّة يعني بذلك الفناء

رابعا — الفلسفة الأفلاطونية الجديدة — لاسيما الأفلاطونية الجديدة المتأخرة التي ظهرت في كتابات برفلس وبيميليوخوس والكاتب الأفلاطوني المسمى خطأ ديوتسبوس الازيوباغنى . ولا نبالغ اذا قلنا إنه لا تكاد مسألة من مسائل التصوف الاسلامى الفلسفى أو نظرية من نظرياته تخلو من أثر للفلسفة الأفلاطونية الجديدة : فنظريات الصوفية في خلق العالم والفيض أو الصدور عن الواحد الحق ، وكلامهم في النفس والعقل والقلب والكشف والمعرفة والشهود ، وفي العالم العلوى والعالم المحسوس وفي الانسان الكامل ، كلها مطبوعة بطابع هذه الفلسفة ومستند اليها خامسا — المسيحية ولا نغنى بالمسيحية الديانة المسيحية وعقائدها ، بل الحياة المسيحية كما حييا المسيحيون في البلاد التي انتشر فيها الاسلام ممثلة في حياة الرهبان والمتصرفين ؛ ولم يأخذ الصوفية عن المسيحيين بعض أساليبهم في الزهد ومظاهر التقشف ولباس الصوف الذى منه اشتق اسمهم فحس ، بل أخذوا عنهم بعض نظرياتهم في طبيعة المسيح وفي التثليث : فقال بعضهم بالحلول ، مثل الحسين بن منصور الخلاج الذى قتل بسبب هذه العقيدة سنة ٣٠٩ . ومن آياته في الحلول قوله :

سبحان من أظهر ناسوته سرّاً لا هوته الثاقب
ثم بدا لخلق ظاهره في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب
وقال بعضهم صراحة بالتثليث ، وأن التثليث أساس يقوم عليه أمر الخلق كله ، ولكنه تليث اعتبارى قائم بالفردية الالهية . وهذا المعنى يجهر ابن عربى في غير مبالاة في قوله :

تثَلَّثَ محبوبي وقد كان واحداً كما صير الاقنام بالذات أقنما
ولست نظرية الصوفية فيما يسمونه النور المحمدى (أو الحقيقة المحمدية) الذى يقولون إنه كان في القدم قبل أن يخلق الله العالم ، وأنه بواسطته ومن أجله خلق الله العالم ، سوى صورة من صور النظرية المسيحية في المسيح الذى يطلقون عليه اسم « الكلمة » ويقولون انها كانت في الأزل مع الله ، وأنه بواسطتها ومن أجلها خلق الله العالم

سادسا — الفلسفة الهندية التي دخلت الاسلام عن طريق فارس وما وراء النهرين وما جاورهما من حدود الهند ، فان المسلمين لم يفتحوا الهند إلا في القرن الرابع الهجرى (في زمن

السلطان محمود الغزنوى المتوفى سنة ٤٢١) ، ولكن الفلسفة الهندية البوذية والتصوف الهندى قد شق طريقهما إلى بلاد الفرس وما جاورها قبل الفتح الاسلامى بنحو ألف سنة ، وقد كان كثير من بلاد هذه الناحية مراكر مشهورة بالتصوف خاصة بالادارة الوثنية القديمة : نخص بالذكر منها مدينة بلخ

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن كثيرا من أوائل الصوفية في الاسلام قد جاءوا من بلخ هذه وما جاورها ، وبواسطتهم دخل في التصوف الاسلامى كثير من النظريات الهندية والتقاليد البوذية في مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن وما إلى ذلك . من هؤلاء إبراهيم بن أدهم الذى يقول عنه الأستاذ جولنزيهر إن قصته قد حيكت على مثال قصة بوذا من أنه كان من بيت من بيوت الملك فرهد في الملك والدنيا بأسرها وعاش من عمل يده ؛ ومثل أبى يزيد البسطامى الذى كان من أصل فارسى زرادشتى تلقى عقيدة الفناء عن أبى على السندى ، كما تلقى عنه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس ؛ والفناء الذى يتكلم عنه أبو يزيد والذى شاع بعده في كلام الصوفية جميعهم هو ما يسميه الهنود « زفانا » أى انمحاء الشخصية الفردية والشعور بالوحدة العامة للوجود . ومما يدل على أن عقيدة الفناء هندية الأصل أنها ظهرت أول ما ظهرت في كلام الصوفية من الفرس أمثال أبى يزيد البسطامى ، وليس لها وجود في عبارات أهل مصر والشام أمثال ذى النون المصرى مع أن ذا النون كان من معاصرى أبى يزيد

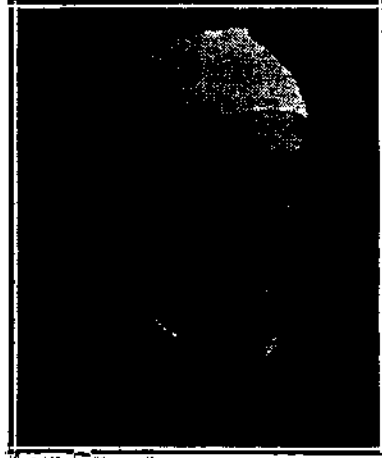
كل هذه العناصر وعناصر أخرى ثانوية الأهمية دخلت التصوف الإسلامى فغيرت من عادته وصورته ، وعنها جميعها ظهرت ناحية من نواحي الحياة العقلية الروحية في الإسلام على جانب كبير من الأهمية ، لأنها مرآة نرى فيها النشاط العقلى والروحى على السواء ، كما نرى فيها وصفا دقيقا لأحوال النفس الصوفية في أرقى درجات صفاتها ، ومحاولات فلسفية أراد بها أصحابها وضع نظريات في طبيعة الوجود أو طبيعة المعرفة أو طبيعة الانسان ومركزه من الله والعالم

ولم يقف الصوفية ، كما لم يقف فلاسفة الاسلام من هذه المصادر كلها موقفاً سلبياً ، أى لم يكونوا مجرد نقلة أو مرددين لأقوال غيرهم ترديد الصدى للصوت ، بل مزجوا كل هذه العناصر

صديق من صنوف الأعداء

للاستاذ أمين الخولي

- ١ -



سرت القرون ترى ،
والغرب يرمى الشرق بأفلاذ
أكباده، ويرصد كيد أنفـس
عتاده، ويبسج لقتله غطاريف
أجناده ، والشرق صامد
باسل، صابر على هذا البلاء
النازل . . . يا عجبا ! هما
يتنازعان قبرا ، وإن يكن
لسيد الحوارين ، وكلاهما
يؤمن أنه مرفوع، وفي السماء

قار . ليس في الأرض مرقده ، ولا بين أطباق الثرى جسده . ولولا
دفع الله الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض . حكمة الله وسنة الاجتماع
لتصل الأسباب ، وتم التواميس ، وتنمو الحضارات ، وتتواصل المدينيات
في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهذا الاتون لما بمحمد ،
بؤجج الحقد أواره ، وبثورت البغض ناره ، كانت تداني قلوب بهذا
التباعد ، وتعارف نفوس بالتقاطع السائد ، ويأني الله إلا أن يكون
هذا الكون خيرا شيب بشر ، وشرأ حمل خيرا ، وأن تكون
الحرب نارا ونورا

- ٢ -

كان جرمانيا صليبة ، أوريبا محضا ، غريبا صرقا ؛ البابا وصيه
وهو صغير ، والبابا مدبره وهو كبير ؛ نشأ في حضن المسيحية ،
وغذاء حب الكنيسة الكاثوليكية ، وبورك بها طفلا ، وفقى وزوجا
وأبا ، كما توج بها ملكا وأيد منها ، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن
يسير إلى الشرق غازيا ، ويخلص قبر المسيح قاديا ، ويعز النصرانية
في شرقها والغرب ؛ ذلكم فردريك الثاني هو هشتاوفن ، امبراطور
الدولة الرومانية المقدسة ، ومالك صقلية - ١٢١٢ - ١٢٥٠ م -

- ٣ -

لكن الشرق الساحر ، بسنه الباهر ، ومجده الزاهر ، وعقله

المختلفة المتباينة مزجا ربما لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ
التصوف في أي أمة أخرى ، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب في
التصوف الفلسفي كان لها أثرها ولها خطرهما في تطور الفلسفة
والتصوف في القرون الوسطى والحديثة ، لاسيما بعد أن بلغ
التصوف الذروة الفلسفية في مذاهب أمثال محي الدين بن عربي ،
وشهاب الدين عمر السهروردي المقتول ، وعبد الحق بن سبعين
الاندلسي ، وعبد الكريم الجيلي ، والصدر القونوي ، وجلال
الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي وغيرهم

من هذا يتبين أن كل نظرية في نشأة التصوف الاسلامي قائمة
على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضى عليها بالفشل . إذ قد
رأيت النواحي العديدة الاسلامية وغير الاسلامية التي استمد
منها التصوف مادته .

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا
في القول بأن التصوف الاسلامي قائم على أصل واحد أو مستمد
من جهة واحدة : فذهب الأستاذ فون كيرمر ودوزي إلى أن
أصل التصوف الاسلامي هندي أساسه مذهب الغيداتا ؛ وذهب
الأستاذ « مركس » إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ؛
وقال الأستاذ برون إنه فارسي في جوهره وإنه نتيجة لرد فعل
أحدثه ثوران العقل الأدي ضد الدين الاسلامي الفاتح .
وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من
هؤلاء جميعا ، إذ يعترف أن التصوف الاسلامي ظاهرة معقدة
غاية في التعقيد ، وأن أصوله متشعبة كثيرة لم يكشف البحث
الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء
من الحقيقة لا الحقيقة برمتها ، وأن الذي دعا هؤلاء المستشرقين
إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون النواحي
الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الاسلامي
والاحوال التي قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة
الاسلامية والعقلية الاسلامية التي هضمت كل ما وصل إليها من
عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى ، واستخلصت لنفسها فلسفة
وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة
الاسلامية والتصوف الاسلامي

أبراهيم عفيفي

- ٦ -

كان شرقى الوجدان ، غمره فيض الشرق الروحي ، ونزوعه الصوفي فلم بأسره تلقينه ، ولم يعقله تعميده ؛ بل كان وراء ذلك كله : دخل بيت المقدس - حفظا لناموسه - برضا الملك الكامل صلحا لجامله المسلمون بمنع الأذان ، وإذا هو يقول : والله كان غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسيحهم في الليل (١) . وإذا المسلمون يحسون تساعه ، فيقول مؤرخهم : إنه كان دهرها ، وإنما يتلاعب بالنصرانية . وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ما عرفت في تاريخها من ثورة وفضال

- ٧ -

تلك شخصية خلقة بالدرس الفلسفي والتاريخي ، رجل أنقذ العقل إذ الجبل حالك ، والظلام قائم ؛ وحرر الوجدان إذ العصية طاغية باغية ؛ وعرف الاسلام وتجب إليه إذ أنكره الغرب وقائله جاهداً جاهلاً ، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه « السلطان المعتمد » (٢) . إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يبعد ، وأنه يجد الشرق ومثله يعشق ، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل

- ٨ -

أيها الشبان : تلك فتنة الشرق ، فهل تقفان فيكم ؟؟
أيها الشبان : تلك روحانية الشرق ، فهل خسرانها بكم ؟؟
أيها الشبان : تلك قوة الشرق ، فهل أضلها عندكم ؟؟
الآ. أجيئوا داعي الزمن المثوب !

أمين الحق

(١) السلوك : الموضوع العايق ص ٢٢٧

(٢) دائرة المعارف الإيطالية الجديدة - المادة السابقة

تاريخ الأدب العربي

للمؤلف أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط
يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم
في صورة قوية تحليلية رائعة
ثمته عشرون قرناً ويطلب من إدارة الرسالة
ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب

القاهر ، وفنه الفاخر ، قد قنن الأنبرور على غريته ؛ واستهواه في أوربته ، وأصابه على جرمانيته ، فإذا العاهل شرق في هواه وميله ، شرق في علمه وفنه ، شرق في مزاجه وذوقه ، شرق في خاصته وجنده ؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم ، ولا يني بموعد ، . . ثم إذا هو حرب على صاحب مقابيح الجنة ، يتهمك حرمة ، ويحقر قداسه ؛ يرفع على رأسه سيفه ، بدل أن يحني أمامه رأسه . وإنما لمفارقة سجلها التاريخ دهشا - ٤ -

كان ذوقه شرقياً ، في جده ولعبه ، في قصره وحاشيته ، في مركبه وسلاحه ؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون ، قد حكى في ذلك ما عرف الشرق من قصور الخلفاء ، حتى ما أفرد ، من مقاصير النساء (١) أنس إلى الفن الشرق صامته وناطقه ؛ . . تجرى حياته على أنماط وعادات شرقية (٢) تحرسه أجناد من بني الشرق المسلمين (٣) يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها (٤) وكم وراء ذلك من مظاهر فنية ، وولع شرق ليس أقل من هذا شأنه ولا أيسر خطراً

كان عقله شرقياً ، أثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية (٥) وعمل على اكتساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده ، ففتح التفكير العلمي لعصره اتجاهاً جديداً ؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب في حركة نقل المعارف عن الشرق في تلك الأعصر ؛ وفي كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوروبا المختلفة ، لنقل ما حفظ الاسلام من تراث الانسانية ، وذخر المدينة

ونسى أو تناسى ما بين الشرق والغرب إذ ذاك ، من حروب مشبوبة ، وعداوة مذكاة ، فراسل ملوكه في الود ، وفي العلم ، يسألهم فتاوى الرياضة ، وفنون الحكمة ، سواء في ذلك داني الشرق منه ، وقاصيه عنه ؛ فكتب إلى علماء سبته يسألهم في شئون فلسفية ، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشيلي (١) ، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر في مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة ، ورد عليه الشيخ علم الدين قبصر الحنفي وغيره من علماء مصر (٢) : التي كانت تلتقي هجمات الغرب ، وتلفته أصول الحياة في وقت واحد

(١) دائرة المعارف الإيطالية الجديدة - فريدريك الثاني هونشتاوفر -

(٢) المصدر السابق

(٣) تراث الاسلام ج ٢ خلية ٢ ص ٢٢

(٤) الدائرة السابقة

(٥) الدائرة المذكورة

(٦) دائرة المعارف الإسلامية - ابن سبعين -

(٧) السلوك : الميريزي و القسم الاول من الجزء الاول ص ٢٢٩

الجيش والبحرية

في العصر العباسي الأول

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

استمد العباسيون

قوتهم من الجيش
الذي نما نمواً عظيماً
على أثر دخول
العسكريين في
الإسلام وانضوائهم
تحت لوائه، وقد بلغ
عدده في عهد الخلفاء
العباسيين الأوائل
مئات الألوف من
الجند، ووصل هذا
العدد في العراق

وحدها إلى ١٢٥٠٠٠ جندي . وكان هؤلاء الجند يكونون
الجيش النظامي للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام . ومن ثم قلت
أرزاقهم تبعاً لزيادة عددهم، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في
بغداد، أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً
(وكان الدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً)، وكانت هناك مع
الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو،
وطبقة الزراعة وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب
مدفوعين بعوامل دينية أو مادية

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفرادهم : فمنهم الحرية وهم
الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح ؛ وهؤلاء من جند العرب .
والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين (وكان من
سياسة الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب

بعضهم بعضاً) ؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسي الأول دخل
في الجيوش العباسية عنصر جديد مالم يكن له غذا له النفوذ ،
وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين ، وهو عنصر الأتراك الذين
كانوا يكونون القسم الرابع من الجيش العباسي . وما انفكت
جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى
استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى
جيش الخليفة أخيراً ؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملاً في أن
يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية . ومن ثم أصبحوا
حراس الخلفاء ، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين
عانوا من جراء عنيتهم وجورهم شيئاً كثيراً ، وما لبث أن امتد
نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم (١)

وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد هذه الدولة أبو مسلم
الخراساني ، وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ؛ وعبد الله
ابن علي العباسي على جند المغرب ، وأكثره عرب من بلاد الجزيرة
والشام . فلما خرج عبد الله بن علي على المنصور واتصر عليه
أبو مسلم بجنده الخراساني كان هذا انتصاراً للفرس على العرب ،
ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين في الجيش ؛ بيد أن المنصور
خشى شر أبي مسلم وشر جنده ، فقفى عليه . ورأى عدم الاعتماد
على الخراسانيين ، لأن العصية العربية كانت لا تزال في قوتها ،
فاضطجع كثيرين من العرب ، وسلبهم قيادة جنده ، كما استعان
ببعض أهل بيته . فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذي انتصر على
محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوي وأخيه إبراهيم .
وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيباني ، وكان من
قواد الأمويين ؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق
وحارب معه في واسط ، ولما سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان
يوم الهاشمية الذي ثار فيه الراوندية على المنصور ، فقاتل عن
الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة
عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وسماه أسد الرجال ،
وولاه اليمن ثم سجستان ، فبقي فيها حتى قتله الخوارج بمدينة
بست (٢) سنة ١٥١ هـ . ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو

(1) Hell : Cultur der Araber, p. 69 - 70

(٢) الطبري ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥

- أعظم قواد المنصور، وفيه يقول بشار بن برد :
- فقل للخليفة إن جئت نصيحاً ولا خير في المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم
قئ لا ينام على دمنه ولا يشرب الماء إلا بدم
وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ هـ لإخضاع أهل طبرستان ،
وكانوا قد خرجوا عليه ، فنازلهم ابن العلاء طويلاً ، وفتح بلادهم
من جديد ، ولم يزل يمتعا بعطف المنصور ، وابنه المهدي حتى
مات في خلافة المهدي (١)
- أما الآلات الحربية التي كانت تجهز بها الجنود ، فلم تكن
تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية ، فكان من أسلحتهم القسي
والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)
وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم
والتي كانت في نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم :
خوذة ، ودرع ، ومنطقة ، وغيان . وكانوا يعنون عناية خاصة
بالسيوف التي كانوا يصنعونها بطريقة فنية ، ويحلوها بالفضة .
وكانت السروج ماثلة في شكلها للسروج الإغريقية التي هي من
نوع السروج الشرقية تماماً (٢) .
- وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد
الدولة العباسية وبخاصة في عهد المنصور الذي اهتم اهتماماً كبيراً
بالمسائل الحربية . وكان يجب أن يعرض جنده وهو جالس على
عرشه لابساً خوذته ودرعه ، فكانت تصف الجيوش أمامه
في ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب (اليم) ،
والخراسانيون (٣) . وما ذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب
عن حصار جند المأمون ببغداد تبين وصف الآلات الحربية التي
كان يستعملها العباسيون في ذلك العصر . وهاك ما ذكره المسعودي
بنصه : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل في
رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصعد نحوه خلق من
العيارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم الساميين
والميازير . وقد اتخذوا لهم وسهم دواخل من الخوص سموها
- (١) شرحه ج ٦ ص ١٧٧
- (٢) Hell p 70 ; Khuda Buksh : Oment under the Caliphs, p. 328.
- (٣) Khuda Buksh : Ount under the Calipho, p 340, 344, 345; Hell, p 70.

عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس . وفي ٥٣ هـ غزا الروم البرلس في عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأُنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هـ هجرية دار لبنائها في جزيرة الروضة (١)

أما أن العرب كانوا مدينين في الأصل للبيزنطيين في هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لاسبيل إلى إنكاره ؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تلبذوا للبيزنطيين في تلك الناحية فترة من الزمن ، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوربا في هذه الفنون . يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوربة إلى اليوم ، والتي لاتزال محفوظة بعريتها . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوربا . ويقول فون كيرمر : « وما يوضح لنا أن الاسطول العربي القديم كان نموذجا لأساطيل الاقطار المسيحية أن كثيراً من المصطلحات العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسن البحارة في جنوب أوربا نذكر منها كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » العربي وكلمة Arsenal وبالإيطالية (Darsenal) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » وكذا كلمة Corvette المأخوذة من لفظ (غراب) العربية ، و Admiral المأخوذة عن لفظ « أمير البحر » (٢) .

حسن إبراهيم حسن

(١) المرفقي : خطط ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) Khuda Bukhsh : Orient under the Kaliphs pp 35 et seq.

مرض البول السكري

نصيحة من مريض (الله تعالى) إلى المريض

مرضت بالبول السكري وابتغيت كل الطرق فلم أستفد سوى استفادة نوقته نزول بزوال الدواء إلى أن وقعني الله تعالى إلى بعض أنواع بذر للنبات لم أجدها إلا بحل عطاء محمد طاهر الصاوي بوكالة أبنزير المزاوي بمصر بمبلغ ٥٢٥٢٠ . ولم يكلفني ثمن سوى مبلغ عشرة قروش مبالغ . وباستعمالها مدة أربعة أسابيع كانت النتيجة مرضه هذا ... فقد ظهر منه نتيجة التحليل أن البول طبيعي بعد أن كان بنسبة ٥٥ في الألف .

لذلك أخذت على نفسي عهداً أن أنصح بها المرضى وأعتقد أن المحل المذكور لا يضر من إرساله لكل مريض فدية مدونة في
مجلس البحوث والمنع المذكور أحمد كـ ٢

طوراً في أيدي العرب ، وطوراً في أيدي الروم .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور (١) ولما ولي هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور ، جعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً وأقام فيها المعاقل ، كما أمدها بجاميات دائمة ؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضاً قاموا بتعميرها ، وزراعتها وأسراهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء إلى أيام الولاة ، ثم أخذت بعد ذلك في الأفول (٢) ، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس .

وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين في ذلك الوقت هي الأساطيل الحربية . ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية في صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر . وكان أول من ركب أبو العلاء الحضرمي وإلى البحرين في عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد الفرس في اثني عشر ألفاً من المسلمين دون إذن الخليفة ، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبي العلاء وعزله . ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر في ركوب البحر كي يغزو بلاد الروم لقرىها منه ، فيكتب إليه يردعه عن ركوب البحر

ولما ولي عثمان الخلافة ألح عليه معاوية في غزو بلاد الروم ، فأذن له على ألا يحمل التماس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شانية وصائفة ، كما غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر من قبل عثمان البحر ، فحارب سنة ٣٤ هـ قسطنطين بن هرقل واتصر عليه في موقعة ذات الصواري . وفي هذه السنة أيضاً فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية . ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد

ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية ، وفي

(١) Khuda Bukhsh : Orient p 349 suiv.; Hell, p 71

(٢) Hell, p 71.

تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

ليس خيراً في الاحتفال
بذكرى هجرة الرسول من
الاجتهاد في إحياء سنته
صلوات الله عليه عن
طريق التنبه إلى بعض
الآخطار التي تخف بها في
هذا العصر الذي تكالبت
فيه عليها الميول والشهوات
ومختلف النزعات الناجمة
في الغرب، والتي توشك إن



لم يجتهد أولو الرأي والدين في صدها وإيقافها عن حدها أن
تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور
كتاب الله نفسه، فتعمى قلوب بعد إبصار، وتنشأ ناشئة المسلمين
في دياجي الشك بعد أن كان يرجى أن تنشا في نور اليقين
وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك
في أحكام الدين من ناحية، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما
يسمونه روح العصر، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية
أخرى. وأصحاب هذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو
يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع
خطواته في الاجتماعيات، أي في الميدان الذي ما نزل الدين
إلا لتنظيمه، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه. والغرب
كما نبهنا في مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا في عالم
المادة أما في عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكماً،
بل هو في حيرة من أمره: يضطرب بالنظم المتناقضة، ويعج
بالآراء والنظريات، ويميد بالآهواء والشهوات، حتى أصبحت
عوامل القوة والأمن التي أصلها من ناحية علومه الطبيعية، هي
بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه؛ وأصبح من مدنيته هذه
المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية، وجهلوا
ضعفه الاجتماعي، فظنوا أن القوة في ناحية معناها القوة في كل
ناحية، وأنه لما كان على حق في طبيعياته، فهو على حق في اجتماعياته؛
فسييل النهوض والقوة في زعمهم هو أن يندع الناس ما هم عليه،
ويأخذوا بما هو عليه، لا يبالون ماذا يتركون، ولا يترددون
ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك
كثير مما أمر به الإسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه. والإسلام
مهما ضعف في نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبه
بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هذه الدعة على الدعاة من
ناحية، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله
إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التي جرى عليها المسلمون منذ قام
صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكماً وعملاً
باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس. هنالك ذهب
دعاة الغرب مذاهب، وانقسموا ظرائق، فيما يدعون إليه،
وكيف يحملون الناس عليه

فمنهم من نظر فإذا القوة بيده، ولاه الناس إياها في ثقة به
وغفلة عن نيته، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتية الزمن مثلها لحمل
الناس على ما يريد، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد، لحمل
قومه على غير الدين، بنفس القوة التي ائتمنوه عليها للدفاع عن
الدين. واشتط حتى كان يشق في سبيل القبة، ويحبس ويحصد
في سبيل السفور والاختلاط؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن
الدين، وحال في أمتة بين الإسلام وبين الحكم الذي هو أخص
خصائصه، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا في الميدان الذي
لم تكن أوروبا لتطمع في غزوه: ميدان الأحوال الشخصية
من زواج وطلاق وتوريث. وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاس
لهذا الصنف من المقتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب
بالقوة رغم الدين، فكان من هؤلاء من أفلح قومه في الثورة
عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشرذوه عن بلده،
فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للسلم الذي ينظر
إلى ما يجري في أقطار الإسلام الأخرى من بعيد، وشبه إنذار
لمن عساه أن تحدته نفسه بسلوك نفس الطريق. فوقف الخطر

الاسلامى وإضعافه ثم إضعافه لما أوجسوا منه خيفة، ورأوا في إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام، عقبة العقبات في سبيل دعوتهم التي يبثونها والتي ما فتوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها . فتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينمروا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فاختد كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية ، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها .

فهم من جعل يوم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجدية . وان روح العصر لاشك غالب . فقيم المعاليه والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل اراى الجريد من الجيل الجديد . وهذه طريقة قد اثرت في كثيرين بل قد افلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وابصر من ان يجوز عليه هذه الخدعة من اهل القلم من المسلمين . فكثرت حديثا بين فئة الشباب المنمدين في حر لهم الدينية الحديثه ضد الاختلاط ، لا لان الاختلاط عنده صواب ولكن لان وقت المقاومة قد فات . إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ا ولو كانت هذه الحجة على اساس من الحق لما أصابت الدعوة الاسلاميه شيئا من النجاح ، لان عمرها كله لا يزيد على ربع قرن . ومع ذلك لم يئأس اهله ان يبدأوها برغم القرون الكثيرة التي رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلامية التي قاموا لمحاربتها : وقد بدأوها بالفعل واصابوا - لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها - هذا النجاح الذي أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحي من الكلام .

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتملئين بايحاته إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاه ما يسمونه الجديد ينشرون دعوتهم يمسوا وشمالا في ادهاب الاطعاف ، وفي عقول النساء والرجال ، لان الحق سيتضح والباطل سينهزم والاصحح سيبقى ، وتركهم يهيمون ان الباطل سينهزم من نفسه ، والحق سيتصر على رغم قعود اهله ، وأن الدين له رب يحميه : وإذ ليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلموا أنفسهم مشقة الجهاد في سبيله . ويصادف هذا الايجاء نفوساً تحركها للقيام كنحركها للقعود ، فتجئح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لاولئك الدعاة ، وهي

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل ، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامناً في بعض الأقطار ينتظر الفرصة لبش كالتار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة . والذين ليس يدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعى إلى غرضهم ، بل هم دائبون ناصبون في سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف . صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تلخص في « بث الدعوة » لكن سبيل الدعوة معبد لهم يميز ، فإن جميع ما يراه الناس ويسمعونه في ملامهم ومتروضهم ، وجميع ما يقرأونه للنسبية لا يخلو مما يتألفهم إلى ما يناق الدين ويثبت فيهم روح الغرب الما جن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون : فالأغنى بالخانها ومعانيها المتها لك . والراديو بما يذيعه من مهازل المنارح وما جن الصالات ، والسيما بما تعرضه من روايات صنعت في الغرب لتمثل فيها تمثل نواحي الشهوات فيه بما ينرى بها الناس ، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية متقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر إلى الشرق وإلى البلاد الاسلامية منه على الأحص - كل هذا وكثير غيره يعمل عمله في النفس المسلميه الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها ، وتمهد للغرب ودعائه سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل في ذاتها خطر كبير ، لكن لا يزال هناك في المسلمين شعور بأنها خطر ، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها . صحيح ان هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حيناً بعد حين ، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكته فترات ، لكنه على أى حال شعور سليم ، وهو على كل حال موجود منتشر ، ووجوده هو معقد الامل والرجاء ان يصير يوماً ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلامية في طريق الاسلام لتحييا في بلادها حياة مسلمة ، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلي الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللا إسلامية ، من تخدير هذا الشعور

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمي الدين يحمي طبق سنته التي خلت في الأولين باهلاك الفاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وأبلغ في الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا في ذلك الحكم ويوعموا للناس أن ليس في الدين ما يمنع مما يريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الإجماع أن يكون أصلاً من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع ؛ فإذا جثت لهم بالنص على اعتقاده تجده في بطون الكتب ، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا رأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم في ماضي الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لا يثبت في الدين لرأى شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما اعتقدت يعة أي بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة في أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم في جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور في أمة من الأمم في هذا العصر أو في أي عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرره حكم الفرد ، إذ يصير حكم الفرد في هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان في الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا في السنة وقالوا إن الذي وضع على الرسول كثير ، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فإذا قلت إنه قطعاً ليس من الموضوع لأنه وارد في الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعاً عن الرسول ، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك في الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم في التدقيق عند تمييز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلي البعيد للسبب أو النسيان أو الخطأ فارقين الصحيح وبين ما لا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائن من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح

عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة في التدقيق فقط هي التي تميز عقلاً من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعاً بصدوره عن الرسول برغم ذلك التحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطاً للحديث لسقط التاريخ كله ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يحيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ما هو في مرتبة دون مرتبة اليقين في العلم وفي الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها ؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون في تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هي من ناحية الثبوت في العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت في الدين . على أن الإجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ في الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون في أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به عما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلاً في الرسالة التي كتبها الامام الشافعي مقدمة للأمام في الأصول ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع في تأويله وصرف الآي عن وجهه وتخصيص عمومته وتخريجها على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته . ولقد لطفت حيلتهم في هذا حتى وقع في أحبولتها بعض قصيري النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقع ولو واحداً من رجال الدين في أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذي يحف بالاسلام اليوم في بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فيجزيهم بتراخيهم ذلة في الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (وينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمد احمد النمراوي

في ظلال الهجرة

غزوة بدر

للأستاذ إبراهيم مأمون

كوساوس الشيطان أغرت مؤمناً
ما غاظها جيشُ السماء . وإنما
برز الحنيفُ على الحياض إلى الردى

يرمى الجهالة أو يدعُ مطالها !
وكان أرض الله تقذفُ ما بها
والكفر في بؤر الخنا متطلع
ويحس في كفيه أنفاس الوغى
ألوى بجيش الشرك رهوب القنا
يا باسط الكفين في كنف الملا
النصر وافي ، واصطفتك مغنم
فلذات مكة في ربك سواثل
كانت تريك بطن مكة بغيرها
خير البرية : تلك عقي صابر
جنبات ملك الله فزع دُعمها
والعرش حوم في رحاب المنتهى
وبعد أجنحة الجلال لمنكبي
جافته برذنتك الشريفة مذرأت
لو يعلم «الصديق» عند وقوعها
وسبأه من وادي السنأ لحائه
ليرى تحيتها لوجهك ضاحياً
ويراك والسبع الطباق خواشع
نور الجلالة تحت ثوبك مشرق
من غير هدبك ماتبسم طالع
تلك الخلائق يا محمد : أعرضت
رجعت بها الأهواء عن غاياتها
فتنت بزائفة النهوض ، ولورأت
كفرت على مهدي الندى آباءها
جادت على وادي السباح برُوحها
جعلت لخاذل دينها تسليماً
ولوانها التمت هداك لصاغت
ورأت حرام الراشدين ملاحاً !
ونقصت في العاجزين كالأها
مخند الأرائل أكرمت أطلالها
وجفت على قرب المدى أخوالها
للتاهيين ، وما رعت إقالها
ولناصرية المتقين جدالها
غدوتك البيض الخطا آصالها

ذكرى ، كما شاء الزمان أجالها
ما الرسلات وما العواصف كويحها
والأم يحث الهجان حداتها
قل للطوائر في الجواء حواتما :
لريح . تنتظم الغمام ظلماتها
حرم السماء مجالها ، وكأما
يخشين في حرس السماء ، تُديرها
هي آذنت «بدر» بنصر «محمد»
جاءت «بجبريل السماء ووحيا» ،
تلك السماء تشقت بغايتها
أزجت إلى جيش الحنيف ملائكا
مثل الحمام يرقعها ويخفها ،
سائل جلود الشرك عن تبريحها
واستوح أشلاء القلب . فانها
يا يوم بدر : والمواقف جة
لبست دروعك سابقات في الوغى
تلقى «محمد النبي» بقودها
ويذود عنها العاديات بحلمه
ماللات ما العزى؟ وأين مناتهم؟
والشرك نكه الجهاد . فلم يقم
تدعو النساء إلى العويل ، وتنتضي
تغرى الوغى بملاحم دموية
بعثت من البيض الخفاف رسالة
وجفت غداثها وأفت قرطها
نحدو الرجال إلى المواقف تارة

في الأثر - المقارنه

الشعر والنثر

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ غزى أبو السمود

وبذيع . أما الشعر فهو غنى ، وسبقه ورويه عن تقييد الطروس ، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ؛ ومن ثم ارتقى الشعر الإغريق كابتصار في ملاحم هوميروس رقياً عظيماً ، والأمة ما تزال إلى البداوة أقرب ، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قل أن تتوطد قواعد النثر اليوناني ، وقيل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وثوسيديد وأفلاطون .

وكلا الشعر والنثر مدينان في ظهورهما ورقبهما - كسائر الفنون - للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلطاً بالموسيقى مصاحباً للرقص في الحفلات الدينية ، التي تحفلها الجماعات الأولى في مواسم آلهتها ، ويفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الإغريق في عصر الطفولة ، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ما تعرف الأمة من مبادئ النثر الفني ، من نثوات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزحون بضائهم وينزلون آلامهم ؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتي الديانة والدولة قليلاً قليلاً ، يشيوع الرقي العقلي وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ، فيصبح كل منهما فناً غايته التعبير الخيالي عن شعور الإنسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادي يكون رقيه الفني وصدقه في أداء رسالة الحياة .

في انتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه في عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الإنسان وتفكيره ، منافساً لذي كثير من مواضعه ومعانيه . فينشأ فن النثر من نهوض مهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين ، يبرزون في كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتغالهم بالثاني . ويشارك النثر الفني الشعر في كثير من خصائصه ، أي خصائص الفنون جميعاً ، كالموسيقى ، والخيال ، والقياس ، والتماثل ، والتجارب ؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان في شتى الخصائص والموضوعات ، فالإنسان متميز في خصائص ، مستقلاً كل منهما دون الآخر بموضوعات هي به أشبه وهو على تأنيبها أقدر . فلكل شعر قصب السبق فيما هو أدخل في باب الخيال والمبالغة والشمول والغمرض أحياناً ، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثري إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة .

فالشعر والنثر كلاهما قائمان على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والصكاهة ؛ وربما رقى النثر في كل ذلك وتشيع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن

الشعر أسبق ظهوراً من النثر في عالم الفن الذي يحتفى صاحبه بإنشائه وتميمه ، ويعتمد إبداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء . فالشعر يظهر ويرتق والأمة ما تزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفني فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا في أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تنح للكتاب أن يتوفر على إنشاء النثر المنق ، الذي يحوى تعمقاً في التأمل واتصالاً في المجهود الأدبي وتديجاً للفظ ، وتتيح أيضاً للنثر الفني أن يبقى

ما اعتز من عزوا بفكر هاديا وبفكر الدنيا رأت إذلالها
خطرت تبحر القيد تحسب أنها بلقت أمانها أو استغلاها
نشوى بحكم الفرد صاغ من العصا قلم المؤذب يجنوى إلالها
تدعو وتنهض في الحياة مضللاً جعل المتاح من الأمور محالها
تتراحم الشورى على أبوابها فتشيع عنها تبتغي أبطالها
وعيت أ كفاء الرجال هدايتها وتبع المواهب لا ترى استغلاها
وأدوا البنين ، كأن شرعتك انتهت وكان عدوان الزمان أدالها
وكان بنى الجاهلية لم يزل يلقى الحقوق يزدري سألها
ولعل من وأد البنات أنابها والجاهلية ترتضى إغلاها
يا آسى التقوى : جفاها طيبها بك تستجير ، فهل ترى إبالها
ذاق الأمرين الأمانة ، وأخفقوا فمن الذي يشقى العقام عضالها
لجت بصيحتها المشرق لم تجد كفا نحل بحزمها إشكالها
نملى المعابد لا قنوت الخاشع فيها ولا نمتى هالك بلاها
ما أكثر الداعين باسم هدايتها حتى إذا نودوا جفوا أقوالها
ورأوا مبادئها مبة جيلهم وكأنها لم تنتظم أجيالها
هي تلك يا طه شريعة دينهم أم تلك دنيا يشربون نهالها ؟

ابراهيم مأمور

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفني - في تأدية رسالة الأدب ويتشاكلان موضوعات وغايات ، ويتراوحيان صعوداً وهبوطاً مع تعاقب العصور ، ويظهر التواضع في كل منهما ، وينال مؤلا وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل أثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا في الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التذليل على صحة نظرية . وأسماء لحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة في تاريخ الأدب الانجليزي ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل للفظ الموجز ، والنظرة النافذة القل الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح المواطن والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربي وارتقى في البداية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ ما بلغه من الرقي على أيدي أصحاب المعتقدات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المشورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ، ولا الخطابة . ولم تدع كلمة النثر حتى تحضروا وثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر معاً في بدء أمرهما محتلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والنثر والكهانة والعرافة والنبؤ والسجع كانت معاني وألفاظاً متلازمة الوثائق . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام يشهد في المواسم الدينية ، وتخطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض الهنانيين في طوافهم :

عك إليك عانية عبادك الهانية

ولم يفضم الشعر والنثر العربيان يوماً علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلّا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتذى النثر العربي على أثر فني لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذي ظل يحتذى ويدرس ويقتبس في النثر والشعر معاً طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وقيام الملك على أساس ديني اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل في دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربي خروجاً تاماً من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفني الخالص المنزه عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي ، وإنما ظل الشعراء

وإن ساروا في الموسيقى ؛ أما الحماسة والنسيب مثلاً فالشعر أهد لها سبلاً وأرحب مجالاً ، إلا أن يجيء النثر الحماسي خطابة فيكون له من رمة الموقف وتعبير سماء الخطب وهبة محضه عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للمواطن ، ومن ثم كانت الخطابة من أشه فنون النثر بالشعر ؛ وأما في سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً . أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطي الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التي يضطلع بها إذا ما توطد وسائر الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويتلقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعرى قد يكون في النثر الجيد كما قد يعدم من النظم الرديء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خواج النفس الانسانية ، فن الطبيعي أن يرتقيا معاً في عصور الرقي الانساني وينحطاماً في عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثاني في انخزال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب . في عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة أحياناً ، وبين نزعة التأمل والوقور والاستقصاء الهادئ . للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المنقطة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى ، وبصور هدوء وركود ، وتأمل على وفلسفي ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفف صوت الشعر فإذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كذلك التي رسمها أرسطو لنظم الحكم في المدن اليونانية ، بين ملكية وأرستقراطية وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طوراً شعرياً طويلاً ، بلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، بل ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجتمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر في أنثائه أو عقبه مباشرة ؛ فإذا ما انبثت في الأمة روح جديدة جاء طور شعري جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثرى وهلم جراً . ولعل في تاريخ الأدب الفرنسي مثلاً لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسي بالظهور على أيدي التروبادور ورونيار ، ثم نهض النثر على أيدي رابليه ومونتيني في عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى في عهد لويس الرابع عشر على أيدي كورنيي وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلاً ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوغو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذبوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

بالقافية المؤنثة، وقد دخلت الانجليزية نقلاً عن الإيطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها، لعدم ملاءمتها لطبيعة اللغة الإنجليزية التي تمنح الافراط في الموسيقية نثراً أو نظماً.

ولما ظهر النثر الفني بجوار الشعر، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا إنشاء الرسائل الدبوانية، وحرصوا على الزود بكل أسباب الثقافة، والتحلل بكل موجبات الفضل، عالج أكثرهم الشعر طبعاً أو تكلفاً، فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولي وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والحرارزمي والبديع والجرجاني - والسكري، أشعار قالها بعضهم نظراً ودياسة للتقريفة، وقالها بعضهم جادين في التعبير عن خواالج صميمية وآراء صادقة. وقد قيل إن الجاحظ عالج قرض الشعر طويلاً ثم أقنع حين لم يفلح. وكان البديع والحريري يخالفان في مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعروض، وفيما عدا ذلك يتساويان تنسيقاً لنظ وبلاغة إنشاء، ومن أجل أشعار الكتاب قول الجرجاني من أبيات هي من غرر الشعر العربي: -

يقولون لي: فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً إذا قيل: هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظما وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر؛ على أنها مفاضلة لا موضع لها: فليس الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيراً من الشعر، وإنما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل في موضعه، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون في حسابهم اعتبارات خارجية لاصلة لها بالفن الصميم، بل هي شؤون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب في بعض العصور، فأصحاب الشعر يستدلون على أنصليته بأن الشاعر يخاطب الأثير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد، وبأن الشعر رفع قبائل كاتف الناقة ووضع أخرى كنمير، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثراً؛ وأصحاب النثر يؤيدون حجبتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم. وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم ولم جرا.

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة، وكان مزاولهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوك من رجال السياسة والدين والحرب، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب، فكان قوامه الشعر أولاً على عهد شكسبير؛ ثم انجاز تدريجاً إلى النثر؛ وكان للانجيل أثر بالغ في اللغة الإنجليزية؛ غير أن الشعر والنثر مالبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجاً عن الملك والكنيسة

والكتاب يعتمدون على رعاية الأثراء، ويسخرون فهم لخدمتهم وتوالت أطوار الشعر والنثر في تاريخ الأدب العربي: فسبق الشعر في الجاهلية، وحل محله النثر في صدر الإسلام متمثلاً في الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم، واستعاد الشعر مكانته في عهد الأمويين على السنة جرير والفرزدق والاختل وجميل وكثير وابن أبي ربيعة وأضرابهم؛ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة، فظهر النثر الفني على أفلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع؛ وبلغ الشعر في الوقت نفسه أوجه على أيدي معاصري هؤلاء من الشعراء، كبشار وأبي نواس والطائي والبحتري وابن الرومي والمنبي والمعرى، ثم أفل نجم الشعر بعدما من القرن الخامس وأفسده العمل، وأعوزته روح الطبوح والمغامرة التي غاضت من نفوس الأئمة التي أرهقتها المثلطون، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نهج الثقافة الإسلامية، فكان العصر التالي طور نثر طويلاً أوجب من النقاد والمؤرخين والكتاب أضراب ابن خلكان والنويري والقلة شندى وابن رشيق وابن خلدون، من كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة، وتنظيمها والتعليق عليها. ثم لحق الوهن والاسفاف النثر كما لحق الشعر. فلما كانت النهضة الحديثة، كان الشعر أسبق إلى الهوى والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد، فالشعر أسبق من النثر إلى الازدهار وأسبق منه إلى الذبول.

كان الشعر أسبق إلى الظهور والرقى في الجاهلية، وكان العرب يعدونه ديوانهم، وكانت له لديهم مكانة عظيمة، وقد ظلت له هذه المكانة على توالي العصور، على رغم ظهور النثر الفني ورقبه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة؛ وظل الشعر أغلق بالنفوس وأثر بالحفظ والذكر، ولم يساير في الحفظ والسيرورة من آثار النثر إلا القرآن الكريم، وهو مملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة. ولما ارتقى النثر الفني راح يتبع خطى الشعر: يقتبس آياته ويضمن شطراته، ويتناول موضوعاته، ويحاكي موسيقاه ووزنه، فاصطنع السجع والازدواج والجناس، وأصبح السجع في النهاية للنثر لازماً لزوم القافية للشعر. والحق أن الأدب العربي بفيه الشعر والنثر أتم دائماً بالاحتفاء بالنظ وجرسه وتميقه، والأسلوب وتقسيه وتديجه، وقد ظل ذلك مستساغاً مقولاً حيناً ثم أفرط وسمج. وظل الشعر العربي شديد الحرص على فئامة الموسيقى ووضعها وأطرادها بلا اختلال، كالاختلال الذي يكثر في الشعر الانجليزي ويأجأ إليه شعراء الانجليزية قصداً للتوزيع واجتذاب الاطراد الممل، وظلت القافية في الشعر العربي كذلك واضحة جزلة مكونة في الواقع من قافيتين صوتيتين، كما في «عانيه» و«مانيه»، في البيت السالف الذكر، وهذا ما يعرف في الانجليزية

بين يومى الهجرة والفتح

حامتان تتناحيان

للأستاذ محمود غنيم



قالت الأولى :

هلى يا أختاه تغادر
سطح هذا الغار - غار
ثور - قبل أن يدركنا
هذا الجيش اللهام ،
فيطينا العثير الذى
تثيره سنابك خيله .
يا لله ! إنه ليبحث الخطى
نحو قومنا - قريش -
ولا قبل لقومنا به ،
عشرة آلاف أو
بزيدون - إن صدق
حدسى - مع كل منهم
سيفه القاطع ودرعه

المنيع ، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه . يا لله لقريش ! من
أين أقبل هذا الجيش ؟

قالت الثانية : لقد جاء القوم عن طريق يثرب ، لكننى لا إخالهم
جميعاً يثريين . أنظرى ، هذه خيل من سليم ، وهذه من مزينة ، وهذه
من غطفان ، هم أمشاج أخلاط ، من كل فج وعلى كل لون ؛ ولكن
شيئاً لا أكاد أتبينه ، تبدو أنواره على أساربهم ، ويشع برقه من
عيونهم - يؤلف بينهم ، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بئان مرصوص
يد أن شعوراً داخلها فى نفسى يجملى لا أرب هذا الجيش ،
حتى لا كاد أقف على ذباب سيفهم وفوق شبارمهم آمنة مطمئنة ،
كأننى فوق منبر الحرم ، أو على حافة مقام إبراهيم . أنظرى معى ،
أنعمى النظر ، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التى تتوسط الجيش ؟
ألا ترين هذا الرجل الذى يتوسط تلك الكتيبة الخضراء ، يوم
للقوم فيسيرون ، ويقفهم فيقفون ؟ إن لى عهداً بهذا الرجل - إن لم
تخنى الذاكرة - آه ! تذكرت يا أختاه ، أليس هذا صاحبنا بالأمس
الذى استضافنا فى هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام ؟ إنه محمد ،
محمد ، محمد ، ألا تذكرين ؟

والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور
القارى . ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لا غاية لها سوى وصف
مشاعر الإنسان وشعوره بجمال الحياة وغبطانها ، وهو الطور الذى
لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً ، بل قام من الأدباء الانجليز من
ناصروا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون

وكان الشعر الانجليزى أسبق إلى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه
فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية
حتى فى النثر القليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ،
فبوكر مثلاً وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً
شعرياً رائعاً ؛ وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ،
بلغ فيه النثر الغاية من السلامة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة
قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان
كثير من شعرائها كتاباً حذاقاً أيضاً تفيض كتاباتهم الثرية بما تفيض
به أشعارهم من روح رومانسية ؛ ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك
مرة أخرى ، فظهر من القاد ما كولى وارنولد ، ومن القصصيين
شكسبى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه
النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة
الفنية . وبهذا كله تبيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل
القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر
واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الادب الانجليزى ،
وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت عارسة
النثر بجانب الشعر دائماً من أدب شعراء الانجليزية ، يسطون فيه
آرامهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكولى
وبوب الشعراء مثلاً من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار
شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطب

على أن الشعر الانجليزى وإن زاحمه النثر فى العصر الحديث
هذه المزاوجة . واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم
يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وإنما هو يجتاز مثل عصر
الركود الذى شهدته فى القرن الثامن عشر ، إذ أن النثر والشعر كما
تقدم يتجاذبان النفس الإنسانية على اختلاف العصور ، يد أن الناس
حتى فى مثل هذا الطور لا يزعون عن حبهم للشعر . بل يلتفتون إلى
الماضى يروون صدامهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون
ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كنانزل ابن
الرومى والمنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب
النثرون فى كلا الأدبين

فخرى أبو السعود

وقالت الأولى : تذكرت كل شيء ، حتى لكأن هجرته بنت الصباح ،
وكان مكانه في الغار لا يزال حاراً ، وكان جرس صوته يرن في ادى
وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، ألم أحدثك يومئذ أن
لهذا الرجل شأن ؟ ما الذى أوحى إلينا يومئذ أن نحمك تدير تلك
المؤامرة التى اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم ؟
يوم عشنا بقم الغار ، وما كان قم الغار لابعث ، ونسجت العنكبوت
خيوطها على بابه ، وما كان لها به عهد ، وأرسلت الشجرة الجرداء
ذوائبها فاعترضت الطريق إليه . لقد تضافرنا على تضليل القوم حتى
ضل القوم ، فظلوا يتخبطون في كل مكان ، ويهيئون كل واد ، يبحثون
عن محمد ، ويحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لمر عليه
تذكرت يوم ثالب شبان قريش على محمد ، وأحاطوا بداره
إحاطة السوار بالمعصم ، ينتظرون طلوع الصباح ، فيعطرون أديم
الأرض بأطيب دم جرى في أطهر عروق ، ويفصلون أعظم رأس
عن أكرم جسد ، وكيف أن محمداً تغفلهم في الهزيع الأخير من الليل
فأضجع علياً في فراشه ، وسجاء بيرده الحضرمي ، ليوم القوم أنه هو
هم السلي من بينهم ، والكري أخذ بمعاقد أعضائهم . كم كان ليلاً هادئاً
ساكناً ، لم يقطع عليه سكونه إلا ديب محمد الخافت ، يسير على
أطراف أصابعه ، وإلا طريقة هامة من أطراف أنامله على باب
صديقه أبي بكر سرعان ما استجاب لها ، كأنهما كانا على موعد . على
أنهما لم يأمن أن يخرجوا من باب الدار ، فخرجوا من فجوة في الجدار ،
ثم انجبا في طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار ، وقد أذن أن ينبثق
النهار ، فقابلناهما بالنجدة والاكرام ، طيلة ثلاثة الايام . كم كان
يشير لإشغافى وإعجابى ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب في طبيعة
الانسان ، مقروناً بالثبات الذى تبعه قوة الايمان !

نعم تذكرت ذلك كله ، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبي بكر
يندس بين قريش نهاراً ، ثم يوافيها في الغار ليلاً ، فيسر إليهما
ما يأترون به ، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبي بكر ، يمر بغنم
عليهما موها فيحلبان ويدبحان ، ثم يعنى بها على آثار عبد الله .
وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتصاها يعلقان به الطعام فشقت أسماء
بنت أبي بكر — ذات النطاقين — نطاقها شطرين ، علفت الطعام
بشطر ، وانتطقت بشطر . وتذكرت سراقه بن مالك وما كان من
أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير ، فخرج
يلتمس محمداً ، فإذا محمد منه عن كعب . لكنه ما كاد يصبح صيحة
الظفر ، حتى شعر بجواده قد عثر ، فأنهضه فكبا ثانية ، ثم ثالثة ،
حتى كأن الحصان قد قوائمه ، أو قد الأرض التى تستقر عليها قوائمه ؛
وإذ ذاك وأى الفارس أن الأرض أثبت ظهوراً من حصانه ، فترجل

ودنا من محمد ، لكن لا يقبض عليه ، بل يعتذر إليه . ألم أخبرك
يومئذ أن الرجل يكتشفه غموض ونحوه أسرار ؟

قالت الثانية : دعيني بما تقولين ، أى سر في جواد يكبر بصاحبه ،
أو في حمامة تبيض ، أو عنكبوت تنسج خيوطها ، أو شجرة ترسل
أغصانها ؟ إنما السر كل السر في تعاليم هذا الرجل التى تنفذ إلى قلوب
أصحابه ، فتفعل فيها ما لا تفعل خمر الأندرين ولا شجر بابل . لقد
هاجر الرجل وهو وحيد طريد ، فن أين جاء بهذا العدد العديد ،
الغارق في يلب الحديد ؟ أتذكرين ما كنت تنتبئين به يومئذ من أن
أهل المدينة لن يكونوا أبر به من أهل الذين أذوه وطردهوه ،
ولو تمكنوا منه لقتلوه ، ولأمن أهل الطائف الذين أغروا به الصغار ،
لخصبوه بالأحجار ؟ أما كنت تقولين : ماذا عسى أن نكون إقامة
محمد بين ظهرائى أهل المدينة ، والمدينة معقل اليهودية التى يناصبها
العداء ، ومهد الفتن التى لا تهدأ ثأرتها بين الأوس والخزرج ، وبينهما
ما بينهما من تراث ودماء ، يتوارثها الأحفاد عن الأجداد ؟

وقد نبت المرعى على دى الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا -
لقد كنت تقولين ذلك ، وحق ما تقولين ، فليت شعري ماذا فعل
محمد حتى استسل تلك السخائم المناصلة من نفوس الفيلتين ؟ وكيف
هادن اليهود ، وهم أشد تمكباتوراتهم ، من أهل مكة بهلهم ولانهم ؟ -
بماذا تفسرين هذا ؟ وما هو هذا الذى يأتى به يسميه قرأنا ، فيصبه في
الأذان كما نصب الخمر في الأفواه ، ويتلوه عليهم كما تنلى الرقى والتعاويذ ؟
إن لم يكن خيراً ، ولم يكن سحراً ، فإى شيء هو ؟ لقد سافر محمد في قلة
وذلة ، لا يفر منه وحش ، ولا تشعر بوطانه أرض ، فما باله يعود
فتد كدك الأرض تحت وقع سابك خيله ، وتلوذ الوحوش منه بغنم
الجال ؟ كان هو وزميله ودليله عند هجرتهم يسرون ليلاً ، ويختفون
عن العيون نهاراً كما يزور الحبيب الحبيب ، عند ما يخشى عين الرقيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى وانثنى وياض الصبح يغرى بى
كانوا لا يأمنون نعمة الشمس ، ولا إغراء القمر ، ولا وشاية
ظلالهم بهم ، ولا يطمنون إلى سلوك طريق معبدة ذلول ، فهم أبداً
يعوجون ويعرجون ويصدون وينجدرون ، فما بالهم الآن يسرون -
في وضوح النهار ، ويكادون يغطون فرص الشمس بما يتيروون من غبار ،
ويستكون حجابها بكل صارم بنار ؟

لشد ما تغيرت الحال ! ولشد ما تدعشنى تلك المغناطيسية التى
تجذب اليه الرجال ! ولعمري ما رأيت اتباعاً أشد تعلقاً بصاحبهم
من تعلق أصحاب محمد بمحمد . أو ما تذكرين يوم كانت قريش تطرح
بلالا على الرمضاء إذا اشتد الهجير ، وتلقى على صدره حبراً ينرم
بمحله البعير . ليكيف عن اتباع محمد ، فلا يزيد على قوله : أحد ، أحد ؟
أو ما تذكرين يوم أسرت هذيل زيد بن الدثنة وباعته من قريش

وقالت الأولى : تذكرت كل شيء ، حتى لكأن هجرته بنت الصباح ،
وكان مكانه في الغار لا يزال حاراً ، وكان جرس صوته يرن في ادى
وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، ألم أحدثك يومئذ أن
لهذا الرجل شأن ؟ ما الذى أوحى إلينا يومئذ أن نحمك تدير تلك
المؤامرة التى اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم ؟
يوم عشنا بقم الغار ، وما كان قم الغار لابعث ، ونسجت العنكبوت
خيوطها على بابه ، وما كان لها به عهد ، وأرسلت الشجرة الجرداء
ذوائبها فاعترضت الطريق إليه . لقد تضافرنا على تضليل القوم حتى
ضل القوم ، فظلوا يتخبطون في كل مكان ، ويهيئون كل واد ، يبحثون
عن محمد ، ويحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لمر عليه
تذكرت يوم ثالب شبان قريش على محمد ، وأحاطوا بداره
إحاطة السوار بالمعصم ، ينتظرون طلوع الصباح ، فيعطرون أديم
الأرض بأطيب دم جرى في أطهر عروق ، ويفصلون أعظم رأس
عن أكرم جسد ، وكيف أن محمداً تغفلهم في الهزيع الأخير من الليل
فأضجع علياً في فراشه ، وسجاء بيرده الحضرمي ، ليوم القوم أنه هو
هم السلي من بينهم ، والكري أخذ بمعاقد أعضائهم . كم كان ليلاً هادئاً
ساكناً ، لم يقطع عليه سكونه إلا ديب محمد الخافت ، يسير على
أطراف أصابعه ، وإلا طريقة هامة من أطراف أنامله على باب
صديقه أبي بكر سرعان ما استجاب لها ، كأنهما كانا على موعد . على
أنهما لم يأمن أن يخرجوا من باب الدار ، فخرجوا من فجوة في الجدار ،
ثم انجبا في طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار ، وقد أذن أن ينبثق
النهار ، فقابلناهما بالنجدة والاكرام ، طيلة ثلاثة الايام . كم كان
يشير لإشغافى وإعجابى ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب في طبيعة
الانسان ، مقروناً بالثبات الذى تبعه قوة الايمان !

نعم تذكرت ذلك كله ، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبي بكر
يندس بين قريش نهاراً ، ثم يوافيها في الغار ليلاً ، فيسر إليهما
ما يأترون به ، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبي بكر ، يمر بغنم
عليهما موها فيحلبان ويدبحان ، ثم يعنى بها على آثار عبد الله .
وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتصاها يعلقان به الطعام فشقت أسماء
بنت أبي بكر — ذات النطاقين — نطاقها شطرين ، علفت الطعام
بشطر ، وانتطقت بشطر . وتذكرت سراقه بن مالك وما كان من
أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير ، فخرج
يلتمس محمداً ، فإذا محمد منه عن كعب . لكنه ما كاد يصبح صيحة
الظفر ، حتى شعر بجواده قد عثر ، فأنهضه فكبا ثانية ، ثم ثالثة ،
حتى كأن الحصان قد قوائمه ، أو قد الأرض التى تستقر عليها قوائمه ؛
وإذ ذاك وأى الفارس أن الأرض أثبت ظهوراً من حصانه ، فترجل

يستشف نوايا محمد إن أخفق ، فنزل أول ما نزل على ابنته أم حبيبة زوج محمد ، فما كادت تراه حتى طوت فراشا كان مبسوطة أمامها ، فقال : أتطوين الفراش رغبة بأبيك عنه ، أو رغبة به عن أبيك ، فقالت : لا والله إنه فراش رسول الله الطاهر الأمين ، أخشى عليه دنس الشرك ورجس الوثنية ، فتشام الرجل ، ونهض مغضباً ، ودخل على محمد فآذره جانه ، فلجأ إلى أبي بكر فطوى عنه كسبها فلأذ بعمر ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . عندئذ ارتد على عقبه يجر ذيل الفشل وخيبة الأمل . على أنه بعدها لم ينمض له جفن ، ولم يهدأ له جاش ، وجعل يتوقع غزو محمد للمكة ، وإن كان محمد أحاط هذا الغزو بالكتمان . ولقد اشتد القلق بأبي سفيان ، فخرج منذ حين ليكشف أمر المسلمين . نعم لقد شاهدته منذ حين في نفر من قريش ، خرجوا يستطلعون خبر الجيش ، فلقد تناقلت خبره الركبان ، رغم مبالغة محمد في الكتمان . وكانت في سفيان ما كاد يلوح غبار الجيش لعينه ، حتى سقط في يديه . وكانت في نفسه بقية شك في دعوة محمد ، فما هو إلا أن رأى جيش المسلمين ، فاذا الشك يقين ، وكانت في به وقد مثل بين يدي محمد . فنظر إليه نظرة يمكن فيها شبح الموت ، ولسان حال الرسول يقول :

إني على الله أن أتابعه - تؤخذ كرها أو تحبي طامعاً

فلم يسع أبا سفيان إلا التسليم والاذعان

قالت الأولى : ها هو ذا الجيش قد دنا من مكة حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، ولأني لآلمح أبا سفيان واقفاً بمضيق تمر عليه جيوش المسلمين فيلقا فيلقاً ، وما إخال هذا إلا من تدبير محمد ، حتى يلبس الرجل مقدار ما يستهدف له قومه من الخطر إذا حدثهم أنفسهم بالمقاومة ، فيذهب اليهم نذيراً ينقل ما ألقى في نفسه من الرعب إلى قلوبهم . يا الله لسياسة محمد ! إنه يريد أن يتم الفتح بدون أن تطاير الروموس ، أو تتناثر الأشلاء ، أو تراق قطرة من دماء . هل تريد أن تبني صدق ما أقول ؟ أوهني أذنك . أصبني إلى هذا النداء : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . اسمعت النداء ؟ أتحققت صدق رغبة محمد في السلام ؟ وكيف يريد أن يحقن دماء أهل المدينتين : التي ربته وليداً والتي آوته طريداً . ها هو ذا أبو سفيان يتقدم الفاتحين داعياً قومه إلى ترك الكفاح وإلقاء السلاح . وها هو ذا جيش الفاتحين ينقسم أربعة أقسام ، يدخلون مكة من جهاتها الأربع : الزبير بن العوام على رأس فريق ، وخالد بن الوليد على رأس فريق ، وسعد بن عباد على رأس ثالث ، وأبو عبيدة بن الجراح على رأس رابع . ولست أظن أن هؤلاء سيلقون مقاومة ، وإن كنت أشك في هؤلاء الذين

لنقتله ببعض قتلى بدر ، فتقدم إليه أبو سفيان ، وهو واقف على أبواب الأبدية وقال : أنشدك الله يا زيد : أسرك أن محمداً الآن في مكانك تضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن تصيبه شوكة في قدمه وأنا في أهلي . أليس معنى ذلك أن القوم يتفانون في حب محمد ودين محمد ، وهم أشد ما يكونون تغافاً إذا حارب الأمر ، واشتدت اللازمة وتخرجت المواقف ،

قالت الأولى : لقد ذكرتني بأبي سفيان ولأني أكاد ألمح شخصاً يشبهه في سواد الجيش ، يسير تحت لواء محمد . أنظري معي ، أنعمي النظر ، كأنه هو ، عجباً ! أثرينه هو أيضاً سرى فيه تيار كبرياء محمد وجذبه مغناطيسه فاستجاب له ، بعد أن ناهضه من بدء دعوته ؟ أليس هو قائد جيش المشركين بدر ، ثم بأحد ثم بالخذق ؟ ثم أليس هو زوج هند بنت عتبة التي مضغت كبده حمة بأحد ، وأرادت أن تشفى صدرها بابتلاعها لولا أن شعرت بمرارتها فلا كتها ، ثم قذفتها ، والتي آلت الأبطأ فراشاً أبو سفيان بعد بدر حتى ينتقم لآيبها وأخيها ، والتي جدعت أنوف صرعى المسلمين بأحد ، وصلت آذانهم ، واتخذت من كل ذلك قلادة تحلى بها عنقها ؟ ليت شعري أثرينها هي أيضاً قد استجابت لمحمد فاستجاب بعلمها ، إنما لأحاجي والغاز

قالت الثانية : حقا أني لآلمح أبا سفيان يسير تحت لواء محمد بجوار عمه العباس ، وليس غريباً أن يكون تيار محمد جرفه كما جرف آلافاً من أمثاله . إن تيار محمد جارف ، وزبحه عاصفة تجتاح كل ما يعترضها في طريقها ، ولئن كان أبو سفيان ناهض الاسلام ضعيفاً لما ضره أن يؤيده قوياً . وما أقل أشياح الضعيف حتى يشتد ساعده فيكثر أشياحه ، وينضوي تحت لوائه من أسرف في عدائه . وهل تعتدين أن كل من ناوأ الاسلام ناوأه مقتنعاً بطلانه ، أو أن كل من أيده أيده بدافع من وجدانه ؟ وهل كان أبو سفيان بدعا في الرجال ؟ كم لآني سفيان من أمثال وأشباه ، كانت لهم تجارة وجاء أشفقوا عليهما وعلى أنفسهم من الهوان فصددهم ذلك عن الإيمان . أما وقد تغير مركز محمد فيجب أن يعتدل موقف هؤلاء من محمد . وما يدريك أن أبا سفيان سيحني من وراء إيمانه خيراً كثيراً ؟ وما يدريك أنه سيخرج من بين صلب أبي سفيان وترائب هند من يفتح البلاد ويتحكم في رقاب العباد باسم محمد ودين محمد ؟ على إن أبا سفيان ما لجأ إلى الإيمان ، إلا بعد ما قاساه من الهوان . أما سمعت ما تحدث به الناس أنه بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية جعل قلب أبي سفيان لا يستقر بين ضلوعه خشية محمد وبطش محمد قسم راحته ، وتوجهه شطر المدينة ليؤكد العهد إن وفق ، أو

وما يدريك أن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ، وهكذا تذكر النبي بجوار هذا القدر موقف الرجل بدر فاعترف الاساءة اللاحقة للاحسان السابق وخالف ما درج عليه الناس ، فكل الناس ينسى من الاحسان طودا قد رسا وليس ينسى ذرة من أسا ولقد تمتلئ محمد إذ وقف بأحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها فرأى عمه حمزة مبقور البطن بجروح الألف بمضوغ الكبد مثلا به أي تمثيل . فأقسم لئن أظفرو الله بقريش ليلئن بسبعين من قتلام ؛ فما هي ذبي قريش مطأطئة الرقاب ، وما هي ذبي رموس قريش دانية القلوب ، فما يمنع محمدا أن يطوف من غلته ويبر بأليته ؟ إنه المتساح في أجل صورة وأعلى أمثله . على أنني لا إخال محمدا مهما بلغ من تساعه يعفون عن الحويرث الذي أغرى على زينب ابنته عند هجرتها ، أو عن هذين الرجلين اللذين أظهرنا الاسلام ثم ارتكبا جريمة القتل بالمدينة ثم ارتدنا إلى الشرك ، أو عن فينة ابن خطل التي كانت تغني وتسمر بهجائه ، فهو لا بد قاتلهم ، ولعلك لا تنكرين ذلك على محمد متأسية أن اللين لا بد أن يشوبه العنف وإلا شابه جماله . ولقد كانت لمحمد بجانب تساعه البالغ صرامة بالغة . ولعلك تذكرين ، نه يوم قبل القداء من بعض أسرى بدر وأطلق بعضا آخر أي إلا أن يضرب عتق النظر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، لشدة ماناله من الأذى على أيديهما قبل هجرته . ولعلك تذكرين أنه ما كادت جنود الاحزاب تتخلي عنه في غزوة الخندق حتى تفرغ لليهود الذين نالوا مع العدو عليه في ساعة العسرة فأباح دماهم وأموالهم ونكل بهم شر تنكيل ، وكيف أنه كان يعترض لقريش وغير قريش من المشركين بريق دماهم ، ويسلبهم إلبهم وشاهم حتى يعتصموا بالاسلام ، وما كان ذلك نجينا من محمد ، ولكنها الدعوة الروحية يجب أن تؤيدها القوة المادية ، حتى ينظر إليها الناس نظرة جديدة ، وهكذا تمهد السيوف للأفلام ، ويتضافر الاثنان على نشر لواء الاسلام

قالت الأولى : ثم ماذا بعد فتح مكة

قالت الثانية : ما يدرينا ؟ لقد كان محمد يعد قومه ملك فارس والروم فينكم به كفار قريش قائلين : « هذا ابن أبي كبشة - يعنون زوج مرضعه حليجة - سيرث ملك الأاكسرة والقياصرة ، ، ولعله لو امتد بنا الزمان بضعة أعوام ، شهدنا تحقيق هذه الاحلام

قالت الأولى : لقد احسنا إلى محمد يوم آوينا في الغار ، وساعدناه على الفرار .

قالت الثانية : أكبر الظن أننا أحسنا إلى الانسانية جمعاء : استحدثنا ثقافة ، وأقنا بناء حضارة ، وغيرنا مجرى التاريخ .

محمود هنيتم

كوم حمادة

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

بقيمون بأسفل مكة ، وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل ، فما أظنهم يخلدون إلى الاستسلام ، بل يابون إلا امتشاق الحسام . على أن خالدا سوف يعمل فيهم نبالة وصاله ، فلا يلبنون إلا ساعة من نهار يلوذون بعدها بأذيال الفرار ، وتستطيعين أن تعتبري هذا اليوم في تاريخ مكة فاصلا بين عهدين ، خالدا على مر الجديدين . هنيئا لمحمد ! لقد غادر مكة أبقا تحت أذيال الظلام ، ثم دخلها دخول القياصرة العظام ، فليصدق مؤذنه بالأذان حتى يشق أجواز الفضاء ، وليقم شامته في ضوء النهار لا من وراء ستار ، وليطف بأرجاء مكة آفنا مطمئنا ، وليتفقد منزله إن كانت أبقت أيدي القوم عليه ، وليزر معاهد صباه ، وليفش حرام الذي كان يتحدث فيه ، وليحلا عينيه من أرض مكة وسماها ، وليحلا رتبه من هوانها ، ليتنفس هوامها الآن نقيا صافيا ، بعد أن حرمة عشرة أهوام ، وتنفسه مسموما موبوءا ثلاثة عشر عاما . ولتنداع إلى خاطره الذكريات ، وليسجم العمر في لحظات . ويل لهبل ومناة ، والعزى والللات ، ولتلك الأصنام المشدودة إلى الكعبة بالرصاص . ولتلك الصور التي تمثل ملائكة السموات غواني فائتات . هذا آخر عهد من بأستار البيت ، لشد ما كان يمتتها محمد . وكأني به يعمل فيها معول التحطيم ويحرم من أجلها على قومه النحت والتصوير ، وهكذا تسمى الوثنية إلى الفن كما أساءت إلى الدين ، ولكن ما نظنين محمدا فاعلا لقريش ؟ قالت الثانية : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، إن محمدا أبر بقومه من أن يحد عليهم أو يؤاخذهم بما اقترفوا ، وإنه لا كبر من أن يتشفي بالثرة عند المقدرة ، وقريش بأسرها المعروف كما ترهبادة السيوف . ولو أن محمدا أراد الانتقام لرأى من المهاجرين مبهذين ، ومن الأنصار أنصارا . إن سيوف أولئك وهؤلاء لتظلم إلى ما في عروق القوم من دماء ، أو ما سمعت سعد بن عبادة عندما دخل مكة صاح قائلا : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمه ، فما هو إلا أن سمع محمد صياحه ، فتعلصت شفتاه ، وقدحت الشرر عيناه ، ثم اختطف الراية من سعد ، وأعطاه قيسا ابنه . إن الرجل لا يريد بقومه شرا ، وإنه ليضرب للعالم بذلك المثل الأعلى في الصفح والمغفرة عند القدرة ، وإلى لاذكر محمد مواقف من هذا القبيل تعتبر مثلا عليا في الصفح الجميل . فلقد سمعت أنه يوم حشد هذا الجيش لفتح مكة ، أخذ على الناس الموائيق أن يتكتموا أمره ولا يذيعوا سره ، ولكن حاطب بن بلتعة كان له بمكة ولد وأهل إشفق عليهم فكتب إليهم حتى يتجهزوا لقتال محمد ؛ بيد أن خبر الكتاب نفي إلى محمد ، فسرعان ما أرسل عليا والوزير في أثر حامل الكتاب ، وكان امرأة فأدرهاها فاعترفت بجرمها وأخرجت الكتاب من بين غداها . اتعرفين ماذا كان جزاء حاطب وهو من جيش الرسول ومن شهود بدر ؟ لقد جوزى على هذه الحيانة العظمى بالصفح والغفران ! قال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ، فقال الرسول - بعد أن أطرق هنيهة - دعه يا عمر

نفحة شرقية

في أدب غربي
للأستاذ عبد الرحمن صدق



كان شاعر الألمان وجوته ،
يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق
وشعره . فدرس العبرانية ولد من
مطالعة التوراة . وكان يهتز لها
لما يجده بها من أريج الشعر ،
وبخاصة قصة راعوث ، وولشيد
الأناشيد ، . وهو يعتبر النشيد
نسيج رحته في الرقة وحرارة
الحب ، وكان يستروح منه نسمة
داقة تهب من بقاع كنعان ،

وتترامى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسطة
الرياض ومنابت الطيوب العاطرة . ويأنس من بعيد زحمة المدن بيني
اسرائيل ، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأهبة ملكه .
ويقتل جوته من العهد القديم العبرى ، إلى عصر الجاهلية العربى .
حيث يقع على الكنوز المذخورة في المملكات . تلك القصائد المطولات
التي أحوزت الفوز بميدان النزال الأدبى في أسواق الشعر عند العرب .
وهو يمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين ، لا يرحلون في غارات
إثر غارات ، يؤججها ما بين قبائلهم من ترات وخصومات . ويقول
شاعر الألمان إن المملكات تحدته بأقوى بيان عن العصبية التي تربط
أبناء القبيلة الواحدة ، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام
والبسالة ، والتحرز من العار والاستمسك بدرك النار ، وطلاب
المجد ، والتماس الفخار . وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدي
هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها ، بما يثبته من الآسى
والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء . ويزيد هذه القصائد العصماء
قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلبسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذى شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد .
وغير خاف أن العالم المسيحى كان من أيام الحروب الصليبية ساء الرأى
بطبيعة الحال في صاحب الشريعة الإسلامية . وكانت الكنيسة تتجاهل
وجود القرآن وتحرم ترجمته ، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع
عشر ، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائماً بدحض

ما جاء به وتفنيد . ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة ،
وحرصاً على تركية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم . ثم برغ على
الأثر عصر الشك ، أو ما يسمونه عصر النور . وكان دعائه يحملون
على الأديان كافة حملتهم الشعواء ، ولا يريدون أن يروا في أصحابها
إلا دجاجة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون . إلا أن الأحوال
تعدلت ، وانبرى بعض المحققين من جهابذة الغرب إلى هدم التخرصات
المكتسوبة إلى محمد في العالم المسيحى ، وكشوا سيرته الشريفة بروح
عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق في الموضوع فأنجلي
لكل ذى عينين محمد رجل الدين ، الثابت اليقين في الله الواحد الأحد ،
وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصى الهند
إلى ربوع الاندلس . واطلع شاغرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد ،
وحيا فيه النبى العظيم والروح القوى الأمين ، حاطم الأصنام الداعى
إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع عتارات منه مأخوذة عن الترجمة
الألمانية . وظل طويلا يمعن في درسه إمعان الباحثين . وهو يشير إلى
أن القارىء الاجنى قد لا يحبه لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب
إليه ، وفي النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز في بيان تعاليم الدين
« ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون
بالغيب ، ويقومون الصلاة ، وما رزقناهم يتفقون . والذين يؤمنون
بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالاخرة هم يوقنون . أولئك
على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء
عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم ،

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير
سورة بعد سورة . ولا يرى جوته في هذا الترديد والتكرار ما يراه
النقاد الغربيون . لأن النبى لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتتويج
في ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام ،
لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان . بل هو
بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وإنما هو نبى مرسل لغرض مقدر
مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو
إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها . فالكتاب
العزيز أنزل ليقتضى الناس الخوف والایمان ، لا للمجرد المتعة والاستحسان ،
وإذا ما عرض للقصاص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار ،
وإنما ضرب الامثال للوعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تأليف قصة تمثيلية عن محمد ، وشرع فيها من أيام
شبيته فنظم منها مناجاة للنبى وهو بالليل وحده في الحلاء تحت السماء

واستأعاه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم في المسرح . وهو يذكر في هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا . وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج عاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمن إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذي عرفه وأحبه في الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعا وأى مقنع . ولكن الرجل أبى له نفسه الرحبة ألا يجتمع فيها الشرق السامي والشرق الآري كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

قد أقبل الرجل يتعرف إلى الماثات والماثات من آلهة الهند ويشهد في التهاويل والصور أوثانهم الهائلة الخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واختار بين أناويه مذاهيبهم ، وتغجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات في نظرم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآلهة والراقصة) و (موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (يديا) التي وضعها للملك (دثليم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الغليظة ، ونفوز أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كيلة ودمية فهي تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما إنطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الألماني في ذلك الاوان قد أوفى على الستين . ولكنه مجدد الشباب أبدا كالحالدين . وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلايل ، والحب الحسي والوجد العلوي . ولقد استغرق جوته في هذا الأدب ونسى عالمه الخارجي وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذ صاحبه ومرشده الديني في هذا الجو الشرق المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي أرق شعراء الفرس الثنائين .

وزاد اعتزال جوته لما خوله ، وأبعد بفكره ، أهيالا بعد أميال . وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازي أبواب الشرق ، الشرق مهد الإنسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، إلى الوحدة والبساطة .

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هذه الآيات في دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة : إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهتدي ربي لا كوني من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني يرى بما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً وما أنا من المشركين . ثم أدار جوته حواراً بين محمد ومرصته حليلة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « على » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الانسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعري لفيض الاسلام وسرعة ذبوعه ودخول القبائل والأمم فيه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع في الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاذ ، ويزخر بما ينصب فيه من الروافد فتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم نزل فكرة هذه الرواية ماثلة في مخيلة جوته حتى وضع مشروعاها . وعلى مقتضاه بدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعوداً إلى الله تعالى الذي تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم في الفصل الثاني يقوم النبي يناصره على بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما رك في جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفي الفصل الثالث يتنصر محمد على خصومه ويظهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته ديناً مقرباً ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولاً وفعلًا . ويظهر الرجل السياسي إلى جانب الرجل الديني . وفي الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر تكلت أحاساها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيه محمد أوج كماله وتجلى عظمتة الروحية . ثم تعاوده عقايل السم فينقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته في مدينة « ويمار » - وهي الآن تكريما له عاصمة الريخ الألماني - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بها ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة . ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم

أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حيتي نحرها ، وتضوع الطيب من غداثها المهدلة المضخخة بالعنبر
« ولعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره ،
والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره ، أن كلمات الشاعر
لا تبرح حائمة حول جنة الخلد ، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود ،

نعر بزة

« لله المشرق ، والله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا
« هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق . سبحانه له الأسماء الحسنی ،
وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيراً
« ينازعني وسواس النقي . وأنت المعيد من شر الوساوس . فاللهم
اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم
« ومهما تفضلنا النزعات وتزين لنا الشهوات . فالنفس التي لا تذهب
في النقي شعاعاً ولا تضعيغ ضياعاً ، لا تلبث بالادخار والآباء أن تتطابق
عارجة إلى أوج العلاء
« وللناس في ترديد أنفاسهم آيات من الشيق والزفير : هذا يفعم
الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجبة التركيب . فاشكر ربك
إذا بليت . واشكر ربك إذا عوفيت

منى أربع

لكما يسعد العرب في البداء ، راتعين في بحوحة الفضاء ، أولاهم
المولى ذر الخيزر العميم متاً أربعاً :
أولى هذه المنى : العاهة . وهي زينة أروع من التيجان كافة . ثم
خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان ، حتى ليعمروا كل مكان . ثم
حسام تبار هو أمتع من الحصون وشاهق الأسوار . ثم القصيد يؤنس
ويفيد ، ويسترعى أسمع الخرد الغيد)

الحرية

« دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح ، وابقوا أتم في
بيوت المدر وخيام الوبر التي لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع ،
وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر
وما زينت السماء الدنيا بمصايح ، إلا هدى للناس في البر والبحر
ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبة السماء .

عناصر الشعر

« كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاء العامة ويلذ سماعه
الخاصة ؟
« إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم . فإن الحب إذا مازج الشعر

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته
بأقرب وشائج القربى . حياة جياها هو أيضاً ، حياة نفس تتقبل
الوجود بمنتهى الحرية والمتعة ، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها
وبين الأرض . وتواجه التعصب والجلود بالتصوف الحي والاحساس
بالشمول . لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ . الممالك
تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغناء
بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسارها الخالدة . وكلاهما يقف
وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام
نابليون ، فلا تنخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب . إن جوته
لما أخذ بهذه المشابهة يهز لها من أعماق نفسه . فهو يعلم ما لهذه اللحظة
من خطر . إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين .
وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني ، يحس بالشرق والغرب
يلتقيان فيه . وتضمهما دفقا كتاب واحد يخرج به للناس هو الديوان
الشرقي للؤلؤ الغربي .

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً ؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على
الترتيب : كتاب المغني . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير .
كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا .
كتاب الساق . كتاب المثل . كتاب القرمس . كتاب الخلد . وفيما يلي
ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار :

نسيم الرحمة

« الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً ، وعروشها تنثر
وممالكها تنهار . فهاجر وامض إلى الشرق الطهور ، تستروح الطيب
من الآباء الطيبين . وبالحب والنشوة والنقاء يرد عليك ريعان صباك
كأنما تضع عليك من نبع الشباب السرمد الحضير عليه السلام .
« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية
الأولى . إلى الأزمان التي تلت فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من
الله بلسان أهل الأرض . فلم يقدحوا فكرياً ولم يكذبوا ذهنياً . إلى تلك
الأزمان التي كانوا فيها يجولون السلف . وينهون عن كل دين غير دينهم
« أريد التلي من عصور الفطرة بأقها الممدود المحدود : فكر
قانع وإيمان واسع

« أريد معايشرة الرعاة في المتجفات ، والاسترواح في ظلال
الواحات ، والارتحال مع القوافل متجراً في الطرح والبن والمسك ،
طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضير

« وسيلان أنجحت أو أنهيت ، فإن أغانيك يا حافظ تؤنسي في
وعاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذاً طرباً ،
وكأنما يوقظ بها النجوم الوسي ، ويرهب قطاع الطريق
« هناك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خاتمه ، أريد

قارورة العطر

(لكي يتجيب اليك المحب بالعطر العبق ، ويزيد في انشراحك
وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . فلا بد
له من عالم منها ليستقر ملقارورة صغيرة ، قارورة مخروطة مستدقة
كأناملك لكي تهدي اليك ، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر
يقعم حسنا ويزيد في متاعنا ! هيات . وتم هلكت أنفـس لا عداد
لها في سيل غظمة تيمور)

لذة الوصال

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمز بطرفها . ونظرة
النديم تلح عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه . وما أحلى تسليم السيد
الآمر يشملك بعطفه . وشعاع الشمس في الخريف يتعشك بدفته .
فليكن أحلى من هذه جميعاً في نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد
بها كف الفقير في طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحد الجليل ما تجود
به . فما أحلاها وقتند نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة في
السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام .

مثل الريحانة

تحدثت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة ، فأنتجت عليها
الأمواج خفقا وضربا . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيرا .
فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما . فأحتوتها الصدقة في حرز حرير .
وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج الشاه درة
تألق حلوة اللع سنية البهاء

الربيع

من الحماقة التعصب للدين . وإذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد
وجب أن نحيا ونموت مسلمين : جميعين .

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد . وإن كان في الديوان
زيادة للستريد . ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة . وفيما تقدم —
الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربي من الروح الشرقى .
والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وأذنت شمس حياته
بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب ، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلکم الرجل العامر
بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولماً بكل مطلع للنور حسيا
كان أو روحيا . وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الاستار ،
وعينه إلى النافذة وهو يتمم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير :
المزيد من النور ! المزيد من النور

عبد الرحمن صرقي

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتلا لافيه
كيت الخز كالياقوت فانما العشاق والندامى هم وخدامهم من ترناح لهم
وتش لمجلسهم

كذلك يطيب في الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النفير ولجب
الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلغ أزهـر دان الناس للبطل ، وغدا بينهم
مؤلها بما أصاب من النصر المؤزر

ولا معدى للشاعر في آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى
والتعرض لها بالهجاء . فما كان مثله أن يلقي القبيح المشنوم . بمثل
ما يلقي الحسن المستحب .

وفاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة . فقد أشاع البهجة
والحياة بين الورى أجمعين . إلى أهد الآبدین

أسير :

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما
باللحاظ والقبل ، قوام سبط ، وأعطاف بضة لينة ، كأنما هي لحورية
من جنة النعيم .

(أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل ، هي بعينها التي جادت
بهذا كله ، هي التي سمحت ثم ولت هاربة . لقد تيمنى وتركتنى
ما حيث أسيرها)

كتاب مطالعة :

(سفر ما أعجبه بين الأسفار ! ذلك سفر العشق . لقد أمعنت في
مطالعة . بضع صفحات من اللذة ، وأبواب متفيضة في الألم .
اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز . على مقطوعة .
وللاشجان مجلدات مذيبة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام :

(واها ! ما أسعدنى !... كنت أتمشى خلال الحقول فاذا
المدهد بطفر في طريقي ، وكانت بغبى البحث هنا وهناك عن ودعات
متحجرات عما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى المدهد في اختيال
ناشرا تاجه متبخرا في هيئة المدل الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت .
فقلت له : يا مدهد ! فى الحق إنك لطائر جيل . إنطلق يا مدهد وبلغ
حييتى أنى لها وملك يمينها ما حيث . وكذلك كنت يا مدهد من قل
رسول الحب بين سليمان وملكة سبا ،

(فقال المدهد : إن التى أنت موفدى لها ، قد أودعنى كامل سرها ،
فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا أعطك على سعادتك . فأنت
عجب وأنت مجرب . ودرام الحب الزاهر مقترنا بالقوى الخالدة بقية
أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)

علوم القدماء عند العرب

ولا سيما في القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية في آخر مراحلها فلم يكد العرب يشتركون في تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا ببلقمتهم ودينهم. أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذي تركه اليونان والذي قد توطن في البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذي القرنين. ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية في الشرق الأدنى، ومكنتها من الازهار في تلك المنطقة الرحبة التي احتضنتها في دائرة حدودها السياسية. فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية في الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التي كانت قد بدأت في تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد في آخر القرن الثاني وفي القرن الثالث للهجرة. ولما كانت لغة التراجم الأولى هي اللغة السريانية فإنها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفي مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذي كان يشغل في بيت الحكمة، ذلك المعهد العلمي الذي أسسه المأمون الخليفة العباسي ببغداد لترجمة كتب العلوم. حنين هذا هو الذي خلق المركز الرائع لأراء جالينوس في القرون الوسطى في الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذي بذل في ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة، وأن حنيناً، كما أوضح بنفسه لم يكن بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أي - دورة التراجم - مرحلة استعداد، وتبعها في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم

الطبيعية والطبية في بلاد الاسلام. وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أسابن متين من العلوم اليونانية مضافاً إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم. وفي الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أو كاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إنَّ أبرز ما في ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة: محمد بن زكرياء الرازي (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامي وأحد أطباء الدنيا الخالدين، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعياً له أكبر الأثر في أوروبا بصفته وسيطاً لنقل الطب الاسلامي إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين في دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجاً.

ما أجود ثقافة هذا الرجل الخوارزمي العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية، كما يظهر من مقدمة كتابه في الصيدلة إذ يقول:

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم ما أو عمل، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها. ولو كان ديسقوريدوس في نواحيها، وتصرف جهده على تعرف ما في جبالنا وبواديها، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفيء، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفارتنا بمشكور مساعيم علماء وعملا. وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتزل علم غير الهند، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغريين، ثم المباشنة بيننا وبينهم في اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم في المجانية بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة. ديننا والدولة عريان ونوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السبائية... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفتدة، وسرت محاسن اللغة في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحل لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها. »

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا في فئة معينة من

- العلماء ، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع .
 ها هي ذى بغداد بمدرستها الفلسفية الطيبة التي هي خليفة
 مدرسة الاسكندرية المشهورة ، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها
 من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران . ومن
 كبار العاملين بها في القرن الرابع المترجم المسيحي أبو بشر
 متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨) ، وأبو نصر محمد الفارابي
 الفيلسوف الاسلامي (المتوفى سنة ٣٣٩) ، وتلميذه الفيلسوف
 المسيحي يحيى بن عدى (المتوفى سنة ٣٦٤) ، والباحث المحقق
 أبو الحسن المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) ، وغيرهم من الفضلاء .
 وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدى (المتوفى بعد سنة ٤٠٠)
 في مؤلفه المسمى « بالمقابسات » ذكر مجالس أبي سليمان السجستاني
 المنطقي (المتوفى بعد سنة ٣٩١)
 فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية
 في الحضارة الاسلامية ، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت
 في القرن الخامس أيضا خصوصا في بغداد ، مع امتداد أشعتها
 إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر .
 تسمى أن نبحت ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليوناني
 في الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ في إحدى مدارس
 الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبييين فيلسوفين ، وإن كانا
 دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا في تاريخ
 الطب والعلوم الطبيعية في عالم الاسلام . هما أبو الحسن المختار
 ابن بطلان من نصارى بغداد ، وعلى بن رضوان المصري . تلخص
 مناظرتهم في أن كل واحد منهما كان يرغب في التدليل على علو
 كعبه في علوم القدماء ، وعلى مقدرة عن الآخر وبروزه فيها
 عليه . فإنا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت في تاريخ
 الحكماء لابن القفطى ، وفي عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن
 أبى أصيبعة ، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين
 شخصية الآخر أى تشابه ، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما
 أن يكونا صديقين ؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة
 كل منهما من صاحبه في صناعة الطب .
 درس ابن بطلان الطب والفلسفة في الكرخ (حى من بغداد)
 على أشهر الأساتذة ، وأكثرهم من النصارى ، وتدل مؤلفاته على
 أنه لم يكن متطبيا فقط ، بل تبحر أيضا في الآداب العرية والعلوم
 الاسلامية ، كما قال عنه ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن بطلان أعذب
- ألفاظاً (أى من ابن رضوان) وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب
 وما يتعلق به . وما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها
 « بدعوة الأطباء . » في هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين
 المدعين بالطب ، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين .
 يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شاباً عند ما ترك بلدته
 التي حرمت عليه العودة إليها في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠
 متجهاً إلى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فخلب
 حيث مكث زمناً ، ثم واصل السفر إلى انطاكية فاللاذقية فيافا
 حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان .
 ثم غادر مصر بعدئذ إلى القسطنطينية ثم عاد منها في آخر الأمر
 إلى انطاكية . قال ابن القفطى : « فأقام بها وقد سُم كثرة الأسفار ،
 وضاق عطشه عن معايشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع
 قزلاً بعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة إلى أن
 توفي بها . » وكانت وفاته - خلافاً لما زعم ابن القفطى - بعد
 سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء بيارستان انطاكية في السنة
 المذكورة . وعند ما كان في مصر أرسل ابن بطلان إلى المؤرخ
 الكاتب البغدادي هلال بن المحسن الصابي كتاباً مفصلاً عن
 رحلته ، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل ما رآه ، كما أنه لا يزال
 هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحى التي زارها
 ابن بطلان ، فلذلك أورد ياقوت الحموى في كتابه المسمى بمعجم
 البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان . ودليلاً على كل هذا نذكر
 شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية . قال : « وهى مدينة يونانية لها ميناء
 وملعب وميدان للخيول مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم
 كنيسة ، وكان في أول الاسلام مسجداً ، وهى راكبة البحر وفيها
 قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان في أوقات الصلوات
 الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ،
 وقاضى المسلمين الذى بها من قبل الروم ،
 أما ما ذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة
 كما كانت . فهى دورة الانحلال والضعف السياسى للدولة الاسلامية ،
 قد أصبحت البلاد التى كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة ، وقامت
 خلافة الفاطميين بمصر ، أضف إلى هذا تفشى الوباء والمجاعات
 باقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحسن الباقون منهم
 بفقدانهم وبالحلوة من بعدهم . وإنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك
 البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلى العظيم ولا اتصال

فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطيبة والأقاويل النجومة والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة .

على أنه إذا اعتبره ابن أبي أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها ، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطيبة ، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة . أما في الفلسفة والأدب فلا نجد سيلاً إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته . رغماً عما يذكره عن نفسه في قوله : « وأما الأشياء التي أنزه فيها فلا في فرضت نزهتي ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض ؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقصر منها على ما أنصه من ذلك : خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريدس ، وكتب زوفس وأرياسيوس وبولس ، وكتاب الحاوي للرازي ، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وما انتفع به فيه ، والمربعة لبطلينوس ، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر ونامسطيوس ومحمد الفارابي وما انتفع به فيها ؛ وما سوى ذلك إما أيعه بأى ثمن اتفق ، وإما أن أخزنه في صناديق ، ويعه أجود من خزنه ، وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتنى بذكر الكتب الإسلامية اجمالاً وتادية للواجب بينما فصل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً .

لا حاجة لنا بإيراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومي ووصفه لمحاسن ترتيب بيته ، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبي أصيبعة) :

« كان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة ، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، ولا عرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ ، و تغير عقله في آخر عمره ، ، وكانت وفاة ابن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

بدل على تفانيه في حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس في منامه ، قال :

العلماء بعضهم ببعض برحلات عليية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغماً عن اختلاف العقائد الدينية على أن ابن بطلان النصراني هذا الذي كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم ؛ فانه « لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولى عليها سألته رد أمر النصارى في عبادتهم إليه ، فولاه ذلك ، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه ، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم ، وخرج عنهم ... وللحليين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم ، (مختصر من كلام ابن القفطى)

قال ابن أبي أصيبعة : « وتوفى ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولداً ، ولذلك يقول من أبيات :

ولا أحد إن مت يبكى لميتى سوى مجلسي في الطب والكتب با كيا
كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان في أكثر من زاوية ؛ فلم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب إليه ، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة ، وكان معجباً بنفسه طماعاً بخيلاً ، لما نقد ماله ذهب عقله ، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يجعلنا على العطف عليه والاعجاب به . هذا ما يمكننا تذكيره عن سيرة حياته : ذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً غير قليل منها .

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً ، قال : « فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم ، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم . ولما أقت أربع عشرة سنة أخذت في تعليم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضاء بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم . ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فاني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، أما ابن القفطى فيقول « وكان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كمادة المنجمين ، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين . ومع هذا تلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه ، وسار ذكره ، وصنف كتباً لم تكن غاية في بابها ، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة . فاما تلاميذه

« وقد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس فقصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسبت ما بك من الصداع ، وأمرني أن أحجم القمحودة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان ، هذا ما يكنى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، وتوجه الآن إلى المناظرة المشهورة التي قامت بينهما . قال ابن أبي أصيبعة : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبي الفرج بن الطبيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذاً لابن بطلان يتعداد) وكذلك أيضاً على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يتتبع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده إطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحر طبيعة الفرج أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد - كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء - أن الفرج أحر من الفروج ، ولكن اليرودي الطبيب الدمشقي الذي قد درس مع ابن بطلان على أبي الفرج ابن الطبيب كان عاباً أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرج . فجمع ابن بطلان في مقالته حججاً يعضدها رأي اليرودي وينقض الرأي الصحيح . بقياس المتعدين تطريقاً لهم ورياضة ... بقياس العناء أن يظهر فضلهم في حلول الشكوك الغامضة ... بقياس المذعنين تبكيثاً لهم وهجنة ، وأورد في آخرها واحداً وثمانين سؤالاً تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الإجابة عنها يظهر أن ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان في رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعاينة ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطنعن منه إلى أصول الجدل العلمي .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعاً يذكر فيه المزاي التي لا يخلو منها الطبيب الكامل ، قال : « وقد بين جالينوس أن الطبيب فيلسوف كامل ، وأنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب . والفيلسوف الكامل هو الذي قد حصل له العلم التعليم والطبيعي والالهي والمنطقي ، فالطبيب هو الذي حصل كل واحد من هذه على الكمال ، لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بأنها لم تحتو إلا هجاء وذكماً . فلم يستطع ابن بطلان أن يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً إلى رد مفصل هو من أطرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه « المقالة المصرية » عرج فيه عروجا عليها فائقا يقصده به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان في المقدمة إلى خصمه بأنه ألف كتابه هذا امتثالاً لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، أن يجيبه بقلب طاهر نقي خال من درن الغضب ؛ « فثامسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن أن الباري تعالى في الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم أن الله في كل مكان أن تكون سيرته في كل مكان كسيرة العامة في الهياكل » . أما الفصل الأول فهو في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبولها للتعليم واحداً ، وهذا عكس ما زعمه ابن رضوان الذي ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التي تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عذمت في تعليم المعلم ، وهي اشتراك الأسماء ، والتصحييف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط ... وسقم النسخ ورداءة النقل ... وذكر ألفاظ مصطلح عليها في الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم ، والبيان السابع يبنى على إجماع المفسرين أن فصلاً من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثاني فهو في أن الذي علم المطالب من الكتب علماً

الأرض مستو، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع، وأهلها مع هذه الخصال المعددة المضادة لمصر يحتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج إليه أهل مصر وما والاها، والمصريون يحتاجون إلى أكثر منه كثيراً. فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة. وإذا كان عذري قد اتضح بادنى عناية، وبأن خطي من عجل في تغليظي من غير ارتئاء، فاطن الشيخ باناس يجرون في العالم مجرى الأنجم الزهر، أبصارنا عند بصائرهم تجرى مجرى بصير الخفاش عند عيون العقبان في ضوء النهار، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذي منح الله البشر علوم القدماء على يده، قدووا العقول إلى اليوم في ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره،

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كإقراط وغيره من جهابذة الفن، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى. يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان؛ فذلك ينبغي لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليماً صحيحاً ولا يشيع عند الأحداث تحبب الاسكندرانيين في تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة، ومنهم اصطفن وماربنوس وجاسيوس واركيلانوس وانفيلانوس وبلاذيرس ويحيى النحوي المنجد البطل المحب للتعلم. ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية. وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليست شعري كيف يذمهم في عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا فصوصها، ثم يحيى الفصل الخامس في مسائل مختلفة، والفصل السادس في تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التي قال فيها على سبيل المبالغة أن يساله ابن بطلان ألف مسألة ويساله هر مسألة واحدة. قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها في المحاور، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية؛ أما طريق ابن رضوان فهو - كما زعمه ابن بطلان - هجاء محض من غير وزن وقافية.

أما السب بقبح الخلقة الذي قد اجتراً ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باو في الذكاء والفظانة ذا كراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجمدوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

رديثا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها. والفصل الثالث في أن اثبات الحق في عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال. أما الفصل الرابع فهو في أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتاباً من كتب القدماء ألا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومن بعدهم كل الوضوح. قال: «إن من عادة القدماء إذا وقعت عليهم المطالب، ولاح لهم فيها تباين وتناقض، أن يعودوا إلى التطلب، ولا يتسرعوا إلى إفساد المطلب. فإن أرسطو بقي يرصد القوس الكائن عن القمراً أكثر عمره فما رآه إلا دفتين؛ وجالينوس واضطرب على تطلب السكون الذي بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه... وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضاً كاد يلفظ نفسه فيه. وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره في العلم طلباً لدرك الحق. هذا والذي في عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة، فإن كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخذنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا. ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم في المرتبة إذا رأت أقوالهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة». ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وإقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه في مسألة وصف التدبير المبرد بمصر خلافاً لبغداد، وحيثه اختلاف الهواء. يقول في خصائص بغداد: «بغداد بلد شمال ليس بكدر الماء، ولا يختلف الأهوية، ولا تنقطع عنه الأمطار في الشتاء، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء، ويحمد لكثرة البرد شطاً دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه، وتأتي فواكهها وأزهارها في أوانها من فصول السنة، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا في الندرة. أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه يثبت الأذكياء، قلباً اختار أهله للنسل من جُلُب من البلاد الجنوبية، فهذا أوجههم على الأكثر يعض مشربة حمرة، وأخلاقهم طاهرة، وطباعهم كريمة؛ ليست أرضها في وهدنة فتحرقها الشمس وتفرقها كثرة المياه وهي من أسباب العفونة نعم، ولا في غربها بحر ولا في شرقها جبل في سفحه مقبرة وتتراق منها الأبخرة، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة، لكنها في بسيط من

وتركوا مكالمته فيما تستأنفونه منه ، ولا تلتفتوا إلى شيء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس ، فهو أبداً يهذو ويهذى فلا يستحق أن يرث له ولا يرحم قط ،

هذا غاية ما يسمح لي الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيب والفيلسوفين . حاصل القول أن الخصمين مع كل ملاحظاته بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما إلى الفكرة اليونانية ديناً شديداً

كانا به يعترفان ويفتخران ، يتحدثان في التشبه بالعلماء الأقدمين ، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدينة البلاد الإسلامية في القرن الخامس . هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية في الشرق الأدنى قبل أن تسير إلى الاضمحلال التدريجي حتى تلاشى . فإن السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسي للناحية الشرقية من عالم الإسلام فحسب ، بل قاموا أيضاً بتأييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التي يعتبرونها مخالفة لها ، فكان

لعلوم القدماء حظ غير موفور ، لأن بعض المحافظين استمروا — يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون في لباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء في القرون المتأخرة من حين إلى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال ، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين إلى شكوك من دونهم . من هؤلاء الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥هـ) ، والجهنزي موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١هـ) والطبيب المصري ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧هـ) مكتشف الدورة الرئوية للدم ؛ إلا أنه للأسف بقي أولئك الأفاضل في أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراهم ولم تنتشر ، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان — من المعبرين عن الحركة العقلية العامة في زمانهما التي اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما . لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمي الذي نشاهده ابتداء من القرن السادس ؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تأثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية في كل نواحيها .

ومهما يكن من شيء فإن ما تناولناه في بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية في بلاد الإسلام يوسف شخت

بني الحسحاس ، وفي النهاية يستفتي ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلاً : « لو أن رجلاً استفتى بفتوى نسختها : ما يقول الشيخ وفقه الله في رجل أسود اللون ، مضطرب الطبيعة والكون ، غليظ الشفتين ، منتشر المنخرين ، جاموس الوجه ، بقرى العينين ، قليل الأنصاف ، محب المراء والخلاف ، قلق المشية جهر النعمة ، يفتينا في ذلك مأجوراً من الله ، للزومه أن يفتي بما نسخته : الجواب ومن الله المعونة : النفس الفاضلة تابعة لأشرف كفيات الهيولى فهي توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة ، وهذه المعددة هي اضداد هذه ، فالنفس التابعة لها غير فاضلة . وكتبه علي بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة ،

وبعد تدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان . فإن المسئلة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تلخص — قال — في اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط ، كما أن الاختلاف بين أبي حنيفة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى في نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف في الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن فخص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان ، وينتهي بانذاره بحساب يوم القيامة ، فسأطالع في الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستثاات المرضى وأشخصوا الأطباء ، وحضرت الملائكة الكتبة ، وخرست الألسن الناطقة ، وشهدت القوارير الصامتة ، بدلائلها كأنها على الحالة الحاضرة ، وظهر الغلط ، واعترف الأطباء بالذي فرط ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... ولينحقق أن ... لنا موقف حساب ، ويجمع ثواب وعقاب ، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وإنهم ليسأخون الشيخ كما سألته ... ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين ، لم يتأخر ابن رضوان في الرد على ابن بطلان مرتين . فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقص الصحيح لذلك الكتاب رجع إلى أسلوبه الكريه المعتاد . أما الرد الأول فقد عجل تأليفه قبل فحسه كتاب ابن بطلان كله ؛ وأما الثاني ففيه تلخيص لكل ماجرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه ، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة إلى مقاطعة ابن بطلان . يقول ابن رضوان في آخره : « فهذا فيه كفاية في أن تعجبوا من أمر هذا الرجل ، وتضحكوا منه